طه عبد الباقي سرور



الناشر

محمد عبد الهادي المهتدي

مطبعة العالم ١٦٢ شارع الخليج بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

# الأفق الأعلى

الشعراني هو آخر نجم بزغ فى الأفق الأعلى . الأفق الأعلى للتفكير الاسلامى ، والنهج الصوفى .

ولقد درج التصوف مع الاسلام منذ يومه الأول ، أفقا خاصا للقلوب المتصدعة من خشية الله ، المتفجرة الينابيع بحبه ونجواه ، وسماء مجاوة للعقول السابحة فى عجائب الكون ، المفكرة فى ملكوت السموات والأرض ، وما فيها من آيات للموقنين ، العقول التي أشرق فيها الإيمان نور الحكمة ورزقها جلاء البصيرة ، وفتوحات العبادة والطاعة . واتقوا الله ويعلمكم الله .

والقلب المتصدع العابد ، والعقل المفكر المؤمن ، والنفس المطمئنة الذاكرة المحبة ، يؤلفون معا : النفحة العلوية ، المثلة الملهمة ، التى ترتفع بالإنسان وترتفع حتى يكون من الملهمين الربانيين المندرجين تحت أفق قوله تعالى ( عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما )

ان شئت فسم تلك المثاليات بالتصوف ، أو بالأفق الأعلى ، وان أحببت فلكل عنوانها نورانية العبودية ، أو الروحانية الاسلامية .

فالتصوف هو جماع تلك المثاليات ، وهو الذى يرسم الأفق الأعلى لمن يتسامى ، الأفق الأعلى المشرق بالروحانية الاسلامية ، الأفق الأعلى الذى تتجلى فيه العبودية الكاملة بأنوارها والهاماتها .

وسبيل التصوف إلى تلك الآفاق ، هو الاستعداد الفطرى ، المتمثل فى الحب الإلهى ، ثم الذكر الدائم ، والخلق الكامل ، والتطوع المتواصل ، لما فوق الفرائض والنوافل .

وفى الحديث القدسى «فلا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه».

تلك هى مرتبة النوافل وما أدراك ما هى، ولكن فوقها مرتبة التطوع الدائم، وهى جعل الحياة كلها ذكرا وعبادة «واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين» «كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون»، «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما».

وافق تلك المرتبة، مرتبة العبودية الكاملة الأثر المشهور «عبدى أطعنى أكن ربانيا تقول للشىء كن فيكون».

وهذا الأفق جبار المرتقى لا يذلل لكل طالب، فلا يطيقه ولا يصبر عليه إلا صفوة من عباد الرحمن الذين اجتباهم واصطفاهم، وجعلهم أئمة وهداة وورثة لأنوار النبوة المحمدية، «وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم».

وليس ما نقول ضربا من الأشواق الوجدانية والسبحات الخيالية، فقد روى أنس رضى الله عنه قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله رجل شاب من الأنصار فقال له النبى صلوات الله عليه: كيف أصبحت يا حارثة، قال: أصبحت مؤمنا بالله حقا. قال انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله، عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى فكأنى بعرش ربى بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها قال: أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان فى قلبه».

وفى رواية أخرى عن محمد بن الحسن «لكأنى أنظر إلى ربى عز وجل فوق عرشه يقضى بين خلقه».

ذاك عبد نور الله الإيمان فى قلبه — وما أجمل وأحلى هذا التعبير

النبوى فعاش فى الأفق الأعلى ، فتجلت عليه روح الاسلام ، فحلق بأجنحة قلبه النورانية حتى رأى الملكوت الاسنى فشاهد النار والجنة والعرش ثم ارتقى فرأى الله جل جلاله وهو يقضى بين خلقه ، رأى وشاهد تلك الآيات بعين الموقنين ، عين الايمان القلبى ، وهو يخطر بقدميه على التيار الارضى .

وقصة الخضر ، العبد الذى اتقى فاهتدى ، فآتاه الله من لدنه علما باطنيا ربانيا معجزاً لا يسابقه علم ولا تدانيه معرفة

ذلك هو التصوف الذى كان له أكبر الأثر فى توجيهات العالم الاسلامى الفكرية والتعبدية ، بل أكبر الأثر فى فتوحاته وانتصاراته العالمية ، وفى رسم أهدافه ومثله العليا الاجتماعية والخلقية والروحية

ذلك هو التصوف الذى استحال إلى شخصيات وبطولات ملهمة عبقرية تتفاعل مع الجماهير وتقودها فتهديها وترشدها ، واستحالت تلك البطولات إلى قوة روحية زاحفة مشرقة بالنور فياضة بالايمان ، تطير بألوية الاسلام وتزكى شعلته وتحفظ مثاليته ، وتفتح له الآفاق فى شتى الميادين العقلية والعلمية

وهذا هو التفسير الصادق لهذا الحشد الخالد من الشخصيات العجيبة والبطولات الفذة التى حفل بها تاريخ التصوف ، آيات معجزات لا تسمو عبقريات الدنيا اليهم ، ومثاليات تجمل حياتنا حين نتحدث عنهم ، وقوة روحية غلابة ملهمة لم يعرفها تاريخ الايمان العالمى لسواهم

ولا بد لنا حينما نتحدث عنهم من أن نعقد الصلات بينهم وبين الروح الصوفى الذى يعد مصدر هذه الطاقة ومشعل نورها وصانع أجنحتها

ومقياس عظمة كل عبقرية من تلك العبقريات اللدنية هو استعدادها للترقى فى المعارج العلوية ، وطاقتها على تحمل العبودية الكاملة ، والحب الإلهى الفاتح لباب الفيض الربانى

والباب الموصل لتلك المعارج ، هو الاقتداء الكامل ، والاحتذاء الصادق

الصارم، بالمثل الأعلى للإنسان الكامل، بالنبوة المحمدية صلوات الله وسلامه على صاحبها

تلك النبوة التي تلقت الفيض كله كملا، واستوعبته وأطاقت تلقيه وصبرت عليه وعاشت له وبه فكانت رمزه الأعلى، وكانت أفقه الأسمى، وكانت معينه الزاخر الفياض، الذي تكفي قطرة منه لصوغ عبقري ملهم من هؤلاء العباقرة الملهمين.

العباقرة الملهمين الذين عاشوا تحت أفق خاتم الأنبياء وسيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم كل بقدر ما فيه من استعداد للتلقي واستعداد للاستيعاب واستعداد للصبر والتحمل واستعداد للفيض والاشراق

وهذا هو السر في فهم المتصوفة وإجلالهم للنبوة المحمدية، فهما وإجلالا لا أغالي إذا قلت أنه يفوق مثيله في قلب كل محمدي.

لقد آمنوا بأن محمدا رسول الله، هو المفتاح الرباني للأبواب الإلهية، حيث تهطل الفيوضات والفتوحات، وإن السر كل السر في المفتاح والباب، فكل من حاد عن الطريق السوي، طريق الهدى المحمدي، فقد المفتاح وتوارى عنه الباب، فحرم من الفتح والعطاء وضل سواء السبيل

تلك هي المدرسة التي أنجبت عباقرة التصوف، مدرسة الاحتذاء والاقتداء بالسنن المحمدي، مدرسة العبودية الكاملة، ولقد كانت تلك المدرسة ولا تزال، قلب الاسلام وروحه وأفقه الأعلى

وتلك المدرسة المحمدية، مدرسة التفكر في آيات الله، والتعبد المتواصل في محاريب الحياة، وكل ما في الحياة محاريب ومساجد للمؤمنين الموقنين، مدرسة الحب الإلهي بما فيها من اشراق وإلهام وفيوضات، هي التي أنجبت أبا المواهب، الزعيم العملاق عبد الوهاب الشعراني

والشعراني عجيبة ضخمة من عجائب تلك المدرسة، أو إن شئت فعجيبة من عجائب التصوف وصنيعة من صنائع الايمان، ولطيفة من لطائف التقوى، وقبس من اقباس النور الفائض على الأرواح المتطهرة العابدة

فدعك من البحث عن مدرسته العلية ، ودعك من البحث عن منهجه ودراساته ، فقد كونته الهامات القلب ، وسبحات الروح ، وأبوزته الطاعة والخلوة، واعبقه الحضرة ، ورعته وحبت وزكته، عناية الله ورضاه

وليس معنى هذا أن الشعرانى لم يكن عالما فحلا ودارسا مبرزا على معاصريه فى علومهم ومعارفهم ، وإنما نريد أن نقول أن تلك العملاقية العلية التى ارتفعت به منارا فتحلى نوره علوم معاصريه ، وتضاءلت حياله معارف مصاوليه ومجادليه ، كان سرها أنها من الأفق الأعلى ، من النبع الربانى الذى لا تفنى الهاماته ولا تنضب امداداته

وحسب الشعرانى أن رجال الاستشراق عكفوا على كتبه يستنطقونها ويتلمسون أسرارها ويقلبونها على أوجه شكوكهم الملحة ، ويعرضونها على موازينهم القاسية ، وخرجوا بعد الشوط الطويل يحنون الهامات أمام العملاق الضخم الشامخ . ويطلقون القول معترفين فى وضوح وصراحة بأن الشعرانى أعجوبة من أعاجيب العباقرة المتصوفين، أعجوبة لا يكاد تاريخ الاسلام يعرف لها مثيلا

يقول المستشرق « فولرز » ( إن الشعرانى كان من الناحية العلمية والنظرية صوفيا من الطراز الاول ، وكان فى الوقت نفسه كاتبا بارزا أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحا يكاد الإسلام لا يعرف له نظيرا ، وإن كتبه التى تجاوزت السبعين عدا من بينها أربعة وعشرين كتابا تعتبر ابتكارا محضا أصيلا لم يسبق إليه أبدا ولم يعالج فكرتها أحد قبله . )

ويقول العلامة « ماكدونالد » ( إن الشعرانى كان رجلا دراكا نفاذا مخلصا واسع العقل ) ويقول فى موضع آخر ( إنه كان يجمع بين أعظم المميزات وإنه كان مشرعا ذا أصالة ونفاذ . وكان عقله من العقول النادرة فى الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى فى الإسلام . وإنه رجل أخلاق نزيه أنفة عالية )

ويقول المستشرق – نيكلسون – عنه ( إنه أعظم صوفى عرفه العالم

الإسلامى كله وإنه منذ فتح المغول العالم الإسلامى ، ركدت الحركة الفكرية فى الاسلام واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد . فلا نجد بوادر انطلاق او انتاج خصب منتج أو أى أثر لتفكير أصيل وصحى . باستثناء شخصيتين شاذتين هما ابن خلدون المؤرخ ، والشعرانى الصوفى ، وكان الشعرانى بالذات مفكرا مبدعا أصيلا ، أثر تأثيرا واسع المدى فى العالم الاسلامى ، يشهد به إلى يومنا الحاضر إقبال القراء الحاضر متواصلا فى طلب مؤلفاته ،

تلك هى شهادات العلماء العالميين الذين وزنوا الشعرانى بموازينهم العلمية الدنيوية ، لا بميزان النورانية الصوفية ، ومع هذا فقد ارتفعت به موازينهم إلى القمة المنفردة شموخا وخلودا

والنعد إلى الأفق الأعلى ، أفق التصوف الوعر العسير المرتقى ، لقد صعد الشعرانى فى معارجه ، وتسنم الذروة فى محرابه ، وتزعم وساد فى آفاقه

والصعود فى تلك المعارج ، وتسنم الذروة والزعامة والسيادة الصوفية ، قد أتيحت من قبل الشعرانى لغير قليل فى هذا الأفق

ولكن الشعرانى كان آخر نجم فى ذلك الأفق ، آخر نجم بحسب الترتيب الزمنى ، ولهذا انفرد وحده بخوض أعنف معارك التصوف فى أحلك الأزمنة وأقساها وأشدها

وحسبه أنه حارب كل معاصريه حتى المتصوفة ، المتصوفة اسما لا معنى فلقد فقد التصوف فى عصره حلاه وعلاه

حارب وحده ، وانتصر وحده ، وارتقى الذروة وحيدا ، وأقام للتصوف دولة عاشت طوال حياته عزيزة غلابة

حارب وانتصر فى أشد العصور الاسلامية رهبة وظلاما وجمودا وجهلا فاطلق آية النور المبصرة التى تمحو الظلمات ، وأعاد للفكر الاسلامى قوته وهداه ، وأعاد إلى القلوب القلقة إيمانها وتقواها

كانت الأمة الاسلامية قبل عهده تعيش فى ظلمات بعضها بعضا ،

ظلمات خارجية تمثلت فى أمواج بربرية من جنود المغول والتتر قادمة من المشرق تجتث الشعوب الاسلامية من أساسها وتدمر حضارتها وتطوى شعلتها وأمواج صليبية قادمة من المغرب ، فوارة بالغضب والتعصب مشرعة السيف بالحقد والبغضاء

وفى الداخل كانت الظلمات أشد وأقسى ، كان الركود الروحى هو العلة الكبرى ، فإن التسوية التى قام بها الغزالى بين المتصوفة والفقهاء كانت قد اهدرت من جانب الأشاعرة الذين سلوا سيف الاجماع المصطنع ضد المفكرين تارة وضد المتصوفة تارة أخرى

حتى إن تاريخ الفكر الاسلامى بعد الغزالى منذ القرن السادس الهجرى هو تاريخ النزاع المشبوب بين المتصوفة والأشاعرة ، من جهة وبين المتصوفة ورجال الحديث من جهة أخرى ، وأعقب هذا الصراع العنيف هبوط فكرى عام فى قواهم جميعا ، كما تنتج المعارك الحربية الضعف والانهيار فى القوات المتحاربة ، وتحمل العالم الاسلامى بأسره وزر تلك المعارك الجدلية الهوجاء جهلا وجمودا ، وبلادة ذهنية ، وخمودا روحيا قاتلا

وجاء ابن تيميه فى اواخر القرن الثانى عشر للميلاد فى قعقعة وزوبعة ، يملأ الدنيا صياحا ضد كل مفكر سواء ، ويخص بحملته الكبرى ومعركته العظمى التصوف والمتصوفة

نادى ابن تيميه بالمعنى الحرفى للقرآن ولم يقبل فى الآيات المجسمة تأويلا وفسق كل المذاهب الاسلامية فى علم الكلام ، وحرم الاجتهاد على الناس جميعا وأباحه لنفسه ، فحدد صفات الله تعالى حسب رأيه ، وحرم زيارة الأولياء وقراءة القرآن لهم ، وتعالى فنادى : بأن من يزور قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه تقربا أو طلبا لشفاعة فهو ضال مبتدع

وعاش ابن تيميه حليف السجون ومات سجينا ، ولكنه كان قد اطلق صيحته ملتهبة متوقدة اجترتها اتباعه كلماته فضخموها وألبسوها أردية

بضناضة زادت نار الحرب وقوداً وضراماً ، حتى امتلأت شوارع القاهرة بالصراع والدماء بين الفقهاء والمتصوفة ، كما يقول الجبرتى

وكان السبب الأكبر فى هذا الجدل والحوار ، وفى تلك الخصومات المجنونة الرعناء ، هو أن النهضة الاسلامية العلمية كانت قد خمدت جذوتها وخبا ضوؤها وأخـــذت البدع والخرافات والأساطير تتعالى فى أفق العالم الاسلامى

لقد ذبل المشعل الذى ظل يتقد عشرة قرون والذى أثارت أشعته الفكرية أرجاء الوجود ، ذبل بل فنى غنوقاً فى الظلمات

ويكفى لتصوير ظلمات هذا العصر ، أن التصوف وهو قلب الاسلام النابض ، أصبح فى تلك الصورة المهلهلة التى رسمها الشعرانى بقلمه

« كان التصوف حالا فصار كاراً ، وكان احتساباً فصار اكتساباً ، وكان استتاراً فصار اشتهاراً ، وكان إتباعاً للسلف فصار إتباعاً للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للقبور ، وكان تعففاً فصار تملقاً ، وكان تجريداً فصار تريداً »

يكفى لتصوير هذا العصر المظلم ، أن الشعرانى يحدثنا عن رجل يسمى الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس على كراسى المساجد أيام الجمع وغيرها ، ويقرأ مايزعم أنه قرآن كريم ، وقد سمعه الشعرانى يقول على طريقة قراءة القرآن « وما أنتم فى تصديق هود بصادقين ، ولقد أرسل الله لنا بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين »

ثم يعقب على هذا قائلا « اللهم اجعل ثواب ماقرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان » ويعلق الشعرانى قائلا « ولم اسمع أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله ، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم » (١)

وكان زميله إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عارياً ويخطب الناس قائلا « السلطان ودمياط وباب اللوق وبين القصرين وجامع طولون ، والحمد لله رب العالمين » فيحصل للناس بسط عظيم كما يقول الشعرانى . (٢)

---

(١) الطبقات الكبرى جـ (٢) ص ١٦٠

(٢) « « جـ (٢) ص ١٢٤

في تلك الظروف وفي هذا الجو الزاخر بالحوادث خرج نجم الشعراوي متلألئاً مشرقاً كأنه ظاهرة كونية تحدث في موعدها المحدد ووفقها المرسوم

جاء كموجة صوفية أطلقها البحر الأعظم تكتسح كل شيء من جذوره ثم تنحسر فتملأ الدنيا خصباً وعطاءً وبركة ونوراً

وهبه الله من علمه، فكان كإشعاعة من الله ورحمته، وكان أينما شرع فيه تخطف به الهدايات والأمن وفي كلمه حوار ينقض بالهدى

جاء فكان مصلحاً، وداعياً بالدعوة ومرشداً هادياً فتمثلت فيه خصائص تلك الصفات فكان كما نص ... نوعه

حرر النصوص من الأساطير والبدع وجلاها تجلية قرآنية، كما أرادها الله لعباده، قوة روحية محلقة في الأفق الأعلى

وحرر الفقه من جموده وترمته فكان الأصولي الألمعي الذي مزج الفقه بحرارة الإيمان فأنقذه من الجمود والجفاف، وحببه إلى الجماهير، يوم جعله لا يجرد أحكام شرعية فحسب، بل حقائق روحية مشرقة.

وحرر علم الكلام — التوحيد — من ترهات المتفلسفين والمحدثين، وأعاده إلى نوره ورونقه الإيماني الذي عرفه واهتدى به الصدر الأول والسلف

وأنقذ الأمة الإسلامية من الجدل والحوار، والجري وراء الأوهام والخيالات، وردها إلى النبع الصافي ونبض الخلاص لوجه الله.

ولم ينسه جهوده الدينية هموم الشعب فكان المصلح الاجتماعي المدافع عن الفقراء والمساكين والضعفاء، القائم في وجه الولاة والحكام يرفع كلمة الحق ويسترد حقوق الضعفاء من الأقوياء

ووقفت الدنيا في عهده ترقب كلمة من فيه، أو إشارة من يده، فهو الملجأ والملاذ للمظلوم ينشد حقاً والظالم يطلب رحمة، وهو المرشد الهادي

إلى حقائق الإيمان وتطمئن بعد ذلك مشكلات الفكر واتجاهه وهو الزعيم الحبيب الذي إذا غضب اضطربت لغضبه قلوب الملايين

وهو بعد هذا وذاك ، مؤرخ التصوف والمتصوفة ، وخليفة العزمية الأوحد على الجوانب الأخلاقية بالجماعة والتعددية في الإسلام والمدافع الأكبر عن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي فيلسوف التصوف العبقري ، وحيي عند الزوايا التي عمرها بالقرآن والتي يسمع فيها ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار .

وقد روي عن النبي صلوات الله وسلامه عليه ، عن ربه عز وجل في الحديث القدسي « إن أولئك من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم »

تلك علامة المتصوفة ، وآية الشعراني ، وفي الخالدين من يذكر ذكر الله ، ومن يذكر الله يذكره . .

طه عبد الباقي سرور

## نشأته وحياته

### أسرته

إلى الدوحة النبوية الهاشمية ينتمي نسب الشعراني، فجده الأعلى هو محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وقد هاجر أحد أجداده إلى المغرب الأقصى في موجات الهجرة من بني هاشم التي حدثت للأطراف النائية من الأسر العلوية الإسلامية فرارا من الملاحم التي نشبت بينهم وبين البيت الأموي تارة، وبين العباسيين تارة أخرى.

وفي المغرب الأقصى استطاع العلويون أن يؤسسوا دولا، وأن ينشئوا حضارات، وأن يظفروا بالحب والتأييد من شعوب الشمال الأفريقي كافة.

ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا أن يوحدوا كلمتهم ودولتهم، بل انقسم بيتهم إلى بيوت وتفرق جمعهم إلى فروع وبطون، وهكذا تعددت دولهم، وتعددت بيوتهم المالكة، وتعددت قبائلهم الحاكمة.

وكان الملك في مدينة تلمسان وما جاورها لقبيلة بني زغبة، وإلى تلك القبيلة ينتسب عبد الوهاب الشعراني.

ومن خصائص العلويين أن الملك لم يصرفهم عن العلم، ولم يباعد بينهم وبين الولاية الدينية، والزعامة الروحية، فكان منهم الملوك، وكان منهم الأئمة الهداة.

وهكذا نرى في تاريخ بني زغبة، أسرة الشعراني، الملك والتصوف يتزاوجان معا ويتعانقان معا ويتقاسمان الحياة سواء، وها هو جده موسى ابن السلطان أحمد يؤثر طريق الله على الملك والجاه، فيتتلمذ على أبي مدين الصوفي، ويترك المغرب مهاجرا إلى مصر تنفيذا لأمره.

ولقد أرخ الشعراني لنفسه في كتابه المنن فذكر كيف تحدث عن نسبه:

«أحمد الله تعالى حيث جعلني من أبناء الملوك (١) فإني عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى المكنى في بلاد البهنسا بأبي العمران جدي السادس ابن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محيا بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن موسى بن السيد محمد بن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان جدي السابع الذي هو السلطان أحمد (٢) سلطاناً بمدينة تلمسان في عصر الشيخ أبي مدين المغربي ولما اجتمع به جدي موسى قال له الشيخ أبو مدين: لمن تنتسب؟ فقال: إلى والدي السلطان أحمد، فقال له: لم أعن نسبك من جهة الشرف، فقال: نسبي إلى السيد محمد بن الحنفية، فقال له: ملك وشرف وفقر — أي تصوف — لا يجتمع، فقال: يا سيدي فخلعت ما عدا الفقر، فرباه فلما كمل في الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر، وقال له: اسكن ناحية (هو (٣)) فإن بها قبرك، فكان الأمر كما قال».

وإذن فالشعراني يقرر أن جده موسى قد حضر إلى مصر بإشارة صوفية من الإمام أبي مدين ليتولى تربية المريدين والسالكين، ويقيم الدليل بدوره على صدق النية، مؤثراً طريق الله وحقيقته على نعيم الملك وأمجاده.

وهذا الأمر جد طريف نعرفه من تاريخ التصوف، فالمتصوفة يعتبرون أنفسهم المدرسة الإسلامية الكبرى التي تهيمن وتشرف على الشعوب المحمدية وتهيمن وتشرف وتسهر يقظة على النهضة الإسلامية وعودة أمجادها، تنظر المتصوفة إلى العالم الإسلامي على اعتباره أمة واحدة، هم رأسها المفكر وقلبه النابض، ولهذا درج كبار المتصوفة على تربية أفراد المريدين حتى إذا كبروا وأعدوا بعثوا بهم إلى المراكز الإسلامية التي تحتاج إليهم دعاة وهداة.

(١) المنن جزء ١ ص ٣٣
(٢) هو أبو عبد الله محمد الزعيم سلطان تلمسان وما والاها
(٣) إحدى مدن مديرية قنا

وبذلك فقد استقر الشيخ موسى أبو عمران ببلدة (هو) وهي قرية كبرى من قرى الصعيد الأعلى، وأصبح من قبائل الهوارة أولى الأسر العصبية الإسلامية، وأسس الشيخ موسى فيها زاوية غدت مركزا من مراكز التصوف في مصر ومهدا من المهود التي يستمد منها رجال الدعوة الصوفية.

ولم يحدد لنا التاريخ السنة التي هاجر فيها موسى إلى مصر، ولكن كتب التاريخ حددت لنا تاريخ وفاته، فقد توفي ببلدة (هو) عام ٧٠٧ هـ بعد أن نجحت دعوته واهتدى بهديها جمهور ضخم في الصعيد الأعلى.

واستمرت أسرة الشعراني بالصعيد تحمل لواء العلم والولاية حتى مطلع القرن التاسع الهجري فهاجر جدها أحمد إلى ساقية أبي شعرة بالمنوفية وأسس بها زاوية للعلم والعبادة، والتف الناس حوله ينهلون من معارفه وفتوحاته، فقد عرف بالتفوق في العلوم الصوفية، ثم أعقبه في الشهرة والولاية والفتوحات، وانتقل إلى جوار ربه عام ٨٢٨ هـ.

وحمل اللواء بعده حفيده أحمد الذي أوتي حظا من العلم المعروف في الأزهر في عهده وحظوظا من العلوم الذوقية التي اختص بها المتصوفة.

ثم تأذن الله لهذا البيت الكريم بيت الملك والنسب أن يهب كماله وتمامه فقد جاء فرعه في قمة مباركة، الطفل العملاق عبد الوهاب الشعراني مؤلفه..

ولد الشعراني على أصح الروايات وأشهرها في ٢٧ من شهر رمضان عام ٨٩٨ هـ وكان مولده في بلدة قلقشندة، وهي قرية جده لأمه، ثم انتقل بعد أربعين يوما من مولده إلى قرية أبيه وأبيه [illegible]، فلقب بالشعراني، وعرف بها أيضا واشتهر به [illegible]، وقد سمى نفسه في بعض مؤلفاته بالشعراوي.

ولقد اضطرب رجال التاريخ في تحديد مولده، فقد ذكر صاحب النور السافر تاريخا لمولده قبل هذا التاريخ بقليل، وقد ذكر صاحب المناقب الكبرى

تاريخا آخر ، وأما المناوى وعلى مبارك والمستشرق شـحب ، فقد أيدوا التاريخ الذى ذكرناه

ونحن نرجح رواية المناوى لأنه تلميذ الشعرانى الأول وصفيه وصديقه وهو يعد هذا أكبر المؤرخين المتصوفين بعد الشعرانى . ويزيد فى ترجيحنا لهذه الرواية اتفاقها مع رواية على مبارك وهو من أدق من أرخ هذه الفترة من التاريخ

واضطرب رجال التاريخ أيضا فى الحديث عن طفولته ونشأته ، فذهب المستشرقان « كرومر » و« نكلسون » إلى أنه اشتغل فى مطلع حياته — بالحياكة —

ولكن المستشرق « فولرز » يسخر من هذا القول قائلا : إن حياة الشعرانى كانت زاخرة بعبادة حافلة بالتعليم فلم يكن من الميسور أن يجد وقتا يحترف فيه عملا .

ولست أدرى من أين جاء المستشرقان بتلك الأقصوصة . وتاريخ طفولة الشعرانى صريح فى أنه لم يضيع لحظة واحدة فى غير العلم ، فهذا هو قد حفظ القرآن وهو فى سن التمييز كما يقول ودرس كتب النحو قبل العاشرة .

فهل هذا تاريخ حر وهب نفسه للعلم والعبادة ، أم تاريخ من يشتغل ويرتزق من الحياكة ؟ والشعرانى يقرر فى صراحة إن من من الله عليه ، أنه لم تكن هناك عوائق دنيوية تعيقه عن طلب العلم والعبادة . وكانت لقماته من الدنيا يسيرة سداها وحلى . وهذه القناعة أغنته عن الوقوع فى الذل لأحد من أبناء الدنيا . ولم يقع لى أنى باشرت حرفة ولا وظيفة فى عمل دنيوى من منذ بلغت ، ولم يزل الحق يسوق لى رزقى من حيث لا أحتسب إلى وقتى هذا . وعرضوا على الألف دينار أو أكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئا وكان التجار والأكابر يأتون بالذهب والفضة فأنثرها فى صحن جامع الغمرى فيلتقطه المجاورون »

ويجرى رجال التاريخ على أنه انتقل إلى القاهرة مع والده ، وأن والده قد سعى له حتى أدخله الأزهر الشريف .

وتلك الروايات أيضا تنحرف عن الحق وتجانب الصواب ، فإن الشعرانى وهو أصدق من يؤرخ لنفسه يقول فى المنن : إنه حفظ فى قريته القرآن الكريم وهو فى بكور صغر سنه ، ثم حفظ أبو شجاع والأجرومية ودرسهما على أخيه الشيخ عبد القادر بعد وفاة والده

وإذن فقد مات والده كما ماتت والدته قبل حضوره إلى القاهرة ، وكان عبد الوهاب رضى الله عنه قد نشأ يتيما من الأبوين ، فكان نصيره ووليه الله

ولقد مات والده عام سبع وتسعمائة للهجرة ودلس فى روايته سابقة أن شعره ، وتاريخ انتقال الشعرانى إلى القاهرة كما أرخه بنفسه أى بعد تاريخ وفاة والده بثلاثة أعوام

## الشعرانى فى القاهرة

مات أبوه وتركه طفلا يتيما فقيرا ، ولكن هذا الطفل اليتيم الفقير كان عجبا ، كان عابدا متبتلا مستغرقا فى صلواته وأذكاره ، استغراقا لا يعرف فى مثل سنه ، وحسبك أنه كان يقوم الليل وهو فى الثامنة من عمره

وكان يؤمن فى أعماق نفسه أنه قد حفته عناية ربانية تعصمه من نقص فى دينه ، كما تعصمه من السوء فى حياته .

وكان يؤمن بهذا إيمانا قويا جديا ، ويسوق على إيمانه هذا كثيرا من الأحداث والأدلة التى وقعت له فى طفولته ونجاه الله منها وحفظه من عواقبها

وكان دائم المطالعة ، شغوفا بالعلوم ، وحسبك أنه قبل أن يتم العاشرة كان قد درس من كتب النحو ما أهله لحاسة النقد .

وكان يؤمن أيضاً بإلهام قلب وجد بأن الله قد وهبه موهبة الذاكرة الواعية الخاصة فهو في عمره مصيره في يد الله عاصمه ووقايته .

مات أبوه فكفله أخوه العالم الصوفي أبو محمد الشيخ عبد القادر ، وعبد الوهاب مدين لأخيه بالكثير من التوجيه ، وأخذ العلوم ، والرعاية الكاملة والعناية التامة ، بل وبفضله هيئ له ذلك الحضور إلى القاهرة ، حيث تفتحت أمامه الآفاق .

ويقص علينا الشعراني تاريخ حضوره إلى القـــاهرة بذلك الأسلوب الأخاذ الصادق الذي عرف عن الشعراني وعرف به ، فيقول :

« وكان مجيئي إلى القاهرة افتتاح سنة عشرة وتسعمائة ، وعمري يومئذ اثنتا عشرة سنة فأقمت في جامع سيدي أبي العباس الغمري ، فمن الله علي بشيخ الجامع وأولاده فكنت معهم كأني واحد منهم آكل مما يأكلون وألبس مما يلبسون ، فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها على الأشياخ .

ثم يقول : « ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع في المعاصي معتقداً عند الناس ، يعرضون علي كثيراً من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها وتارة آخذها في محل الجامع مستقطب خفية ... » .

والشعراني هنا يشير إلى حقبة من تاريخه في طلب العلم وهي الفترة التي مكثها في الأزهر .

فأجمع رجال التاريخ على أنه حضر من قريته إلى الأزهر ، حيث قضى خمس سنوات يتلقى العلم على يد شيخه علي الشوني الذي أحبه وقربه واصطفاه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مسجد الغمري بناء على مشورة شيخه علي الشوني .

ومسجد الغمري كان في ذلك الوقت منارة للعلم ومثابة للطلاب ، وكانت الحياة فيه على غرار أمثاله من المساجد التي عرفت في العالم الإسلامي في

معاصرة عنه، لا يكتفي فيها بالتعميم فقط بل يخرج فيها عن [illegible] من الأوقاف والمبات على [illegible] وسنعرض لبعضها [illegible]

ومكث الشعراني في مسجد الغمري يعلم ويتعلم ويتهجد ويتعبد سبعة عشر عاما، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند، وفي تلك المدرسة، بزغ نجم الشعراني وتألق، فقد ملأ المدرسة حوله صياحا [illegible] والإعجاب من محبيه ومعاصريه [illegible] من حساده وشانئيه

وقد حاول بعض المستشرقين، ومن بينهم بعض دارسي الشعراني من المعاصرين أن يلقوا ظلالا من الشكوك والريب حول انتقاله المفاجئ من مسجد الغمري إلى مدرسة أم خوند فحاكوا أسطورة خيالية حول حب الشعراني لابنة شيخ مسجد الغمري. وعصبوا [illegible] لذلك، ولم يأتوا بدليل واحد على دعواهم، وإنما أقاموها [illegible] لأنهم كما يقولون لم يجدوا مبررا [illegible] من أن يكون [illegible] سبب خفي وهذا السبب الخفي لا بد وأن يكون شجارا بين الشعراني وشيخ المسجد. وهذا الشجار، لا بد وأن يكون أساسه حبا فاشلا بين الشعراني وابنة الشيخ.

وتلك الأسطورة [illegible] وليدة المخيلة التي أولع بها كتاب القصص [illegible] إلا من وراء عدسات الخيال الجنسي

وحدثنا علي مبارك عن تلك الفترة من حياة الشعراني فيقول: لقد راض الشعراني نفسه على النهج الصوفي وهو في جامع الغمري فطار ذكره وذاع في الناس أمره وكان شيخه علي الخواص قد أذن له في أن يرتب مجلسا بالمسجد يجمع فيه للصلاة والسلام على رسول الله، وسكن أولاد الغمري [illegible] كل

---

(١) [illegible]

ويقول [illegible] في مسجد [illegible] بالقاهرة في وقت [illegible] من [illegible]

فوبهم الحسد على تلك المكانة العالية التي ظفر بها الشعراني فطلبوا منه أن يغادر مسجدهم .

ويروي صاحب النور السافر أن الشعراني أخذته حالة وجد ذات يوم فصاح باسم الله صيحة ارتجت لها جدران المسجد وكاد يتصدع منها بيت الشيخ أبي الحسن الغمري وكان على كثب منه فاستفسر الشيخ عن صاحب الصوت ، حتى إذا عرفه هم بالرحيل إلى بيت آخر ولكن الشعراني كان قد سبقه إلى الرحيل ، تاركا وراءه كل ما يملك ولم يشعر به من سوى حتى حط رحاله بمدرسة أم خوند وأقام بخلوتها ستة أيام ، فرأى في منامه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن له بالإقامة بها فدخلها مع أسرته .

ولا تعارض في الجوهر بين رواية علي مبارك وبين رواية صاحب النور السافر ففي الرواية الأولى أن أولاد الغمري حسدوا عليه مكانته حتى طلبوا منه الرحيل عن مسجدهم

وفي الرواية الثانية أن الشيخ تظاهر بالرحيل لسبب تافه يضمر وراءه أكثر من معنى ، وأدرك الشعراني النية والهدف من هذا التظاهر فبادر هو بالانتقال أدبا مع شيخه واختصارا للخطوة الثانية التي لا ريب فيها بعد أن طغى اسم الشعراني على الشيخ وعلى أسرة الشيخ

وإذن فهذا الانتقال كان مرده الغيرة والحسد لا الحب والهوى كان ضرورة طبيعية للشعراني فقد آن له أن يستقل بنفسه وبمجالسه العلمية ، وآن له أن يكون صدر هذه المجالس لا مجرد تابع وتلميذ

# الشعراني طالب العلم

جاء الشعراني من قريته إلى القاهرة مهاجراً في سبيل العلم فعاش تحت ظلال المساجد فيه وبه ، مستغرقاً في طلب العلم ، عاملاً في التعبد ، عاش معه والتقوى ، فتياً طاهراً عبداً مكافحاً .

وقد اتصل منذ يومه الأول بمقام الصفوة من شيوخه جلال الدين السيوطي وزكريا الأنصاري وناصر الدين اللقاني والرملي والسمهودي وأضرابهم وقد أفاض الشعراني في ذكر مناقبهم بما استغرق صفحات وصفحات من كتبه ، كما أفاض في ذكر إجلاله لهم ، وحبهم له .

ودرس الشعراني على أساتذته بمكتبة الإسلام كتب الشريعة وعلومها في التصوف والفقه والحديث والتفسير واللغة والأصول حتى عد كما يقولون في عصره أحداً من معاصريه ضبطاً لما حفظه عنه أو تحققاً بما عمل به عملا

درس الشعراني كل معارف عصره العلمية دراسة فهم وتذوق ، وبروح المجتهد المؤمن المحب ، وبروح الطالب المثالي الذي ينشد الحق فلا يتعصب لمذهب من مذاهب الدين ، ويعتقد في أئمة الإسلام ورجاله المفكرين فيه ولا يسرع إلى تخطئة أحدهم ولا يبادر إلى الاعتراض عليه ، لإيمانه بأن علماء الإسلام وأئمته على هدى من ربهم ، وبصيرة من نور علمهم

ثم هو بعد ذلك خاشع القلب متواضع في محاريب العلم ، فإذا أدرك بفهمه لطيفة عجيبة أو حل مشكلة واستخلص حقيقة من حقائق المعرفة في كتاب الله وأحاديث رسوله ، فلا يجزم كما يقولون أن ما فهمه أو استنبطه هو مراد الله من آيه أو مراد رسوله من حديثه ، أدباً وفراراً من دعوى علم أو التلبس برداء كبر وغرور .

ومن خلقه العلمي أنه حفظ نفسه من الحدة والجدال ورفع الصوت في مجالس العلم ، ونرى الشعراني يحدثنا عن دراساته بأسلوبه البسيط الساحر

ولما [illegible] حفظت كتاب المنهاج للنووي [illegible] ألفية ابن مالك
ثم التوضيح لابن هشام [illegible] جمع الجوامع [illegible] ثم تلخيص المفتاح
ثم الشاطبية [illegible] قواعد ابن هشام [illegible] وحفظت هذه
الكتب حتى صرت أعرف متشابهها كالقرآن [illegible] من جودة الحفظ ، ثم
[illegible] نفسي إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة [illegible]
في مذهب الشافعي ، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب ، وهو في أواخر
الكتاب ، [illegible] الأحوال باب الخرق [illegible]
خارج [illegible] في مكاشفة [illegible] على [illegible] القضاء على الغائب ولا أقتص
على غائب [illegible]

[illegible]
[illegible] وكنت [illegible] في الشرح [illegible] كل شيء [illegible]
في فهمه [illegible] شرحه [illegible]

ثم [illegible] شيخ [illegible] رضي الله عنه فقال لي مكاشفا ، أقبل على
الاشتغال بالله [illegible] العلم [illegible] فشاورت في [illegible] مشايخي
[illegible] ، لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ
[illegible] فلما [illegible] سلكت طريق القوم .

ثم [illegible] محفوظاتي على شيوخي [illegible] شيخا ، فقرأت
على الشيخ [illegible] شرح [illegible] وكنت [illegible] على [illegible]
هذه [illegible] و [illegible] للإسنوي و [illegible] للزركشي و [illegible] للسبكي
والعمدة لابن الملقن ، وشرح ابن قاضي شهبة ، وشرح الروض للشيخ زكريا
الأنصاري ، والكتب [illegible] على الشيخ جلال الدين ، [illegible]
[illegible] أو [illegible] أكثر من الكتاب ، ثم قرأتها
كلها عليه

(١) [illegible]

وقرأ عليه أيضاً شرح [illegible] مع [illegible] الأشمونى [illegible] الشيخ [illegible] وشرح القرآن [illegible]

وعنى الشعرانى فى [illegible] بعد [illegible] عن [illegible] تلك القصص الدقائق من الكتب التى أخذها [illegible] وأسرار [illegible]

الشعرانى فى طريق [illegible] الله

[illegible] الشعرانى [illegible] وفى [illegible] قواعد [illegible] و [illegible] وخلطات و [illegible] وسيمه [illegible] إلى النهج الصوفى [illegible] وتعلق [illegible] واجواء تحقيقه ومطالع أنواره [illegible] مل [illegible] سوى [illegible] اطلق [illegible] الله على [illegible] من [illegible]

وفى [illegible] لا [illegible] وعلم [illegible] ووداه من [illegible] وجد الشعرانى فى أول ما رأى والده الصوفى صاحب الخلوة الذى كان قبلا من الليل ما يهجع ، وشاهد شقيقه العالم الصوفى [illegible] وهب نفسه لله فكان يستشعر أنه مع كل [illegible] حتى [illegible] حشية الشباب

وعاش الشعرانى [illegible] بين أحضان [illegible] الذى [illegible] ولم يكن له [illegible] فى صغوله [illegible] وشعب [illegible] ويفرق فى [illegible] والحديث والفقه والأصول [illegible] مجالس [illegible] ويتلقى منهم وينهل من معارفهم وهو فى [illegible] من [illegible]

ومن الله عليه فكان شيوخه [illegible] فى [illegible] من [illegible] بين [illegible] العلمية والنزعة [illegible] الصوفية

[illegible] الشعرانى [illegible] من [illegible] لسبيل إلى أن يشق طريقه على أيدى أرباب الطريق [illegible] شيوخه [illegible] حتى يستكمل العلوم الظاهرية حفظاً وفهماً واستيعاباً

ولكن الشعراني كان من حيث لا يشعر صوفيا كاملا من صغره. فقد زاول التصوف منذ نعومة أظفاره فكبح شهواته وزاد عنها حتى عن الحلال المباح، وعض على ذكر الله ليله ونهاره حتى علق في سقف حجرته حبلا يطوق عنقه من حين صلاة العشاء حتى مطلع الفجر خوفا من سلطان النوم وغفواته. فإن غلبه النعاس على أمره صب على جسمه الماء البارد.

وقد حتم نفسه في العبادة ما فرضه بالأحوط والأكمل، وأن لا يوجد عنده اجتناب المكروه كالمحرم، والاعتقاد بأنه كالواجب وهكذا.

والشعراني نفسه يفصل هذا المقام فيقول: إن من من الله عليه بمجاهدة نفسه من غير شيخ له شحر في العلم، ثم شفع بمساعدة كما يقول على إثر الموانع التي تعوقه عن العمل بما علمه.

ويحدثنا الشعراني عن ذلك بأسلوبه القلبي الساحر، ويبين قصة عبادته ومجاهداته.

«وتركت أكل شهوات الطعام، ودست الحشيش والقرطب نحو سنتين، ثم أكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين، ثم أغناني الله تبارك وتعالى بالحلال الذي استطبت بعد ذلك. وكنت لا آكل طعام أمير ولا مباشر ولا تاجر ولا فقيه وغيرهم ممن في كسبهم شك. وضاقت على الأرض كلها ونفرت من جميع الناس فكنت أقيم في الساحة مهجورة ولا أزاح الخرب مدة طويلة وما رأيت أصفى من تلك الأيام.

وكنت أطوي ثلاثة أيام أو أكثر ثم أفطر على نحو أوقية من خبز وصحفت شربتي وثوبي وعمامتي حتى كنت أصعد بطيئة في الهواء إلى الصهريج المنصوب على صحن جامع الغمري [1] فأجلس عليه في الليل ونحن نيام ثم أتنازل من السلم إلى الجامع ... وقت طويلة ...

وهذا الصعود ... فإنه لا يثقل الإنسان إلى الأرض إلا كثرة

(١) الجزء الأول من المنن

الشهوات . وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر وتلاوة القرآن فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها إذا سمعت كلامه أو اسمه فتكاد تلحق بعالمها العلوى

ولما غلب عليّ طلب العزلة عن الناس ، تنكرت منى قلوب أصحابى ، ونفروا منى حتى كأنهم لا يعرفونني من ضيق وقتى عن مخالطتهم بأحكام العفو

وكنت إذا فتحت مجلس الذكر بعد العشاء ، لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ، ثم أصلى الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار ، ثم أصلى الضحى وأذكر حتى يدخل وقت الظهر فأصلى الظهر ، ثم أذكر إلى العصر ، ومن صلاة العصر إلى المغرب ، ومن صلاة المغرب إلى العشاء ، وهكذا مكثت على ذلك نحو سنة ، وكنت كثيراً ما أصلى بربع القرآن بين المغرب والعشاء ثم أتهجد بباقيه فأختمه قبل الفجر وربما صليت بالقرآن كله فى ركعة ، وكان نومى عليّ تعطف رأسى عطفة بعد عطفة ، وعطفة بعد عطفة وكثيراً ما يغلب على النوم ، فأضرب أفخاذى بالسوط ، وربما نزلت بثيابى فى الماء البارد فى الشتاء حتى لا يأخذنى النوم

وهذه الأمور من قاعدة إذا تعارض عندنا مفسدتان وجب ارتكاب أخفهما مفسدة ، ولا شك فى أن وقوف المحب بين يدى الله عز وجل فى الظلام مع تألم جسمه بالضرب أحسن عنده من نومه عن ربه عز وجل حال تحببه مع صحة جسمه كما أشار إليه قوله ﷺ « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » ، ولكل مقام رجال ، ومن غلب عليه خاطر نفيس تمنى أن اتصف به فى وقت والشكر عليه فى وقت آخر ومن طالع أحوال القوم فى مجاهداتهم سهل عليه ما يكابده فى نفسه ، فقد وقع للنبى أنه كان إذا غلب عليه النوم يضرب نفسه بقضيب خيزران حتى يكاد أن يفى بحزبه فى الليلة الواحدة ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، فأنزل الله عليه « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » الآية ،

وهكذا كان الشعراني [illegible] شيخ

ويحكي الشعراني في وصف مجاهداته لنفسه ، وهي مجاهدات لا يطيقها إلا [illegible] من لا يصبر على الأسماع إليها ولا يجد مساغها عند ذكرها إلا من أحبه الله و[illegible] حتى [illegible] الشعراني [illegible] ضخم القرب [illegible]

أحس [illegible] العون من الشعراني ويصيره شخصاً روحياً . أليس كل شيء [illegible] أصلاً من التراب ؟

ثم يعطف الشعراني على [illegible] في خلقه وحياته فيقول بأنه [illegible] مقاماً في [illegible] حتى لو أحضرت إليه [illegible] الناس [illegible] لم يجد [illegible] على [illegible] ولحسه من [illegible] في العقل . [illegible] واحداً إلا بضرورة شرعية . فقد في [illegible] مع [illegible] وفقدت [illegible] ثم [illegible] أو كما يقول [illegible] أكلي ومشربي كأني في الصلاة .

و[illegible] الخلق من [illegible] شفقته على [illegible] المسلمين شفقة [illegible] حتى ليأمر كما [illegible] أخوه المؤمن [illegible] شفقاته كما [illegible] دعوات [illegible] فيقول

« ثم ستري عورات الناس وعيوبهم حتى [illegible] ، وذلك لون من الخلق والرحمة [illegible]

ثم [illegible] بالدعوة والإرشاد [illegible] كلمة [illegible] في [illegible] أكثر [illegible] ولولا [illegible] بكلمة الحق [illegible] لأن [illegible] وقته عند الله لا عند الناس ، ولأنه [illegible] أخلاقه ، مقاصد لا وسائل

ثم [illegible] كما يقول [illegible] على أذني أن تسمع [illegible] ، وعلى عيني أن تنظر محرماً وعلى لساني أن [illegible] يتكلم [illegible] .

ذلك [illegible] الشعراني [illegible] من [illegible] ، قبل تصوفه ، أو قبل أن يسلك الطريق إلى الله على أيدي شيوخه

## شيوخه في الطريق

يقول شيخ الصوفية القشيري في رسالته على التقي: ولو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس كلهم، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة، من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.

ويقول الشعراني: ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم لم يحتج مثل الغزالي وعز الدين بن عبد السلام إلى شيخ مع أنهما كانا يقولان قبل دخولهما الطريق: من قال إن ثم طريقاً للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله كذباً، فلما دخلا الطريق كانا يقولان: قد ضيعنا عمرنا بالبطالة والحجاب.

والصوفية جميعهم قد أجمعوا على أن السالك لطريق الله لا بد له من شيخ مرشد يكشف له الصحيح من الزائف في الإلهامات والواردات، ويعلمه الأدب وطرائق التحلي به، ويبصره في خواص قلبه، ويعصمه من الزلل ويداوي أمراضه النفسية من الكبر والرياء وحب الدنيا والحسد والغل والنفاق، وأمثالها.

فالتصوف مقامات تبدأ بعد نهايات أهل الفكر والدرس، وقراءة معان واستنباطات وفهم في أسرار القرآن، فلا بد لرائده من مصباح وهاد والشيخ هو المصباح الهادي.

والتصوف آداب وتزكية نفوس، وتطهير أخلاق، ومجاهدات وتصحيح معاملات، والشيخ هاد يشد ويرشد ويلهم ويعصم الآفات.

ثم يقول الشعراني: وإذا علم من يقول إن السلف الصالح لم يعرف هذا اللون من التربية، وهذا اللون الممثل في الشيخ والمريد.

وقد كان السلف الصالح لصفاء نفوسهم وقلوبهم لا يحتاجون في طريق [illegible] نفوسهم إلى شيخ لعدم العوائق، وصار الناس اليوم لهم عوائق لا تحصى

لذلك وجب اتخاذ شيخ يرشد إلى طريق إزالة هذه الموانع من باب ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب. فإن اشتغل المريد بعد ذلك بالعلم، أو صلى أو صام، أو تورع أو زهد، كان محفوظاً من الرعونات التي تجرح مقام الإخلاص أو تحبط العمل

وحقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه، على وفق ما أمر الله به. وكانت صورة مجاهداتي لنفسي من غير شيخ أني كنت أطالع كتب القوم كرسالة القشيري وعوارف المعارف وقوت القلوب لأبي طالب المكي والإحياء للغزالي ونحو ذلك وأعمل كالذي يفحص درباً لا يدري هل ينفذ أم لا؟ فإن رآه نافذاً خرج منه، وإلا رجع من التعب. فهذا مثال من لا شيخ له فإن فائدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمريد، ومن سلك من غير شيخ تاه وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ مثال دليل الحجاج إلى مكة في الليالي المظلمة.

ثم يقول: والشيخ في الطريق ضرورة لازمة مانع ما يقع على المريد. ولو حفظ آلاف الكتب فهو في هذه الحالة كمن يحفظ كتاباً في الطب ولا يعرف تنزيل دوائه على الداء. فإذا سمعه سامع وهو يدرس الكتاب قال: إنه طبيب عظيم، وإذا رآه حين يسأل عن اسم المرض وكيفية إزالته علم حينئذ مقدار جهله.

ويشترط في الشيخ كما يقول الشعراني فوق تمسكه ووصوله، أن يكون متبحراً في علوم الشريعة على اختلاف أنواعها بالأصول ومذاهب الأئمة الأربعة وغيرها بحيث يعرف أدلتها ومنازع أقوالها، محيطاً بأمهات الكتب التي يتفرع منها كل قول.

وبما جاء مشيخات الشعراني ليسلك الطريق إلى باريه وهاديه، سلوكاً كما اشترطه المتصوفة، وكما رسمه العابدون الواصلون الأولون، أشار عليه واحد أبيه ل، صعبه بحية أنه وإن كان قاب قوسين أو أدنى من النور الرباني والفتح الإلهي إلا أن القيم الغيبية لا يجدها إلا الشيخ السالك المدرب الموهوب المأذون له.

ويستقر كلام صفيه ويحبه في قلبه . فلما آب إلى منزله وانتهى من أوراده وتسبيحه لم يجد قلبه حاضراً . فقد وجد كلام صفيه ويجده أحمد البهلول . وراوده وأخذ عليه مجامع قلبه وخواطر نفسه حتى رد أسمه الجهد في سنة من النوم إذ يطيف بلالاً كأنه يجيئه ويفوح طيبه وعطره . يهمس له في منامه بالإشارة والبشارة .

وربما البشارة والإشارة تحولان في كلمة حتى جميل . لأنه قلب الشعراني طوال حياته :

« يا ولدي اطلب حياة الحياة التي لا موت بعدها ، فاخرج عن الكون وعن الخلق ومت عن هواك وإرادتك ، فهناك يحييك الله عز وجل حياة لا موت بعدها ، ويغنيك غنى لا فقر بعده ويعطيك عطاء لا منع بعده ، ويرحمك رحمة لا تعب بعدها ، ويعلمك علماً لا جهل بعده ، ويطهرك طهارة لا دنس بعدها ، ويرفع قدرك في قلوب عباده فلا تحقر بعدها

قد مضت أيام الصبي وجاءت أيام التقى . . . »

واستيقظ الشعراني عام القلب بالأمل ، فانطلق إلى شيوخ الطريق وهم بعض أصدقائه وبعض شيوخه ولنترك الشعراني يحدثنا بحديثه الشيق عن تنقله في مقامات العلم والزهد في مقامات الذوق والصفاء

« ولقد اجتمعت بخلائق لا يحصى من أهل الطريق ، ممن تقدمهم المتبحر والأنوار فلم يكن لي فيه عقد أحد منهم سوى ثلاثة علي المرصفي ومحمد الشناوي وعلي الخواص رضي الله عنهم

فسلكت على يد الأولين شيئاً يسيراً ، وكان تقدمي على يد علي الخواص أعلى لكمال الصبر لمعهود بين الفريقين ولا تحقيق أنه لا فطام حتى يموت الإنسان

ومهما عرفت نفسك أنه لا بد من شيخ في الطريق ، كما قال موسى للخضر هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً »

وقد اعترف الإمام احمد بن حنبل لأبي حمزة البغدادي بالفضل عليه كما اعترف الإمام ابن سريج لأبي القاسم الجنيد

وكان الغزالي يقول بعد اجتماعه بشيخه ضيعنا عمرنا بالبطالة، وهو حجة الإسلام، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وهو من هو، يقول ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي

ولما اجتمعت بأهل الطريق قالوا لي اجعل أعمالك كلها مقاصد تحضر فيها مع الله تعالى، ولا تتخذها وسائل، فتموت ولا تصل إلى مقصودك فقربوا عليّ الطريق . . .

# الشعرانى والخواص

الخواص رجل من رجال الله ، وعلم من الأعلام الهداة ، وصحبته وصورته من المنارات التى يهبها الله لعباده ، لتكون للسالكين إليه ، نورا وسنيا .

ولكل رجل من رجال الله مقام ، ولكل رجل من رجال الله رسالة فى الحياة فمنهم من رسالته فى التربية والتوجيه بالعلم والكتب ، ومنهم من رسالته الكرامات وخوارق العادات ، للتثبيت واليقين ، ومنهم من رسالته تربية المريدين ، ومن رسالته تربية العارفين .

والمربون للعارفين هم الكمل السادة ، ومنهم من يظهره الله ، ومنهم من يحجبه ، ومنهم بين هؤلاء وهؤلاء .

فالخواص فى الطريق ، وعند أهله ، كامل من السادة ، وإن جهله الناس وإن أنكره العوام العوام رغم علمهم ، ورغم ما بأيديهم من أقلام وكتب .

الخواص كامل من السادة ، وحجته على مكانته عند أهل الطريق معروفة واضحة وحجته عند غيرهم أنه صنع لنا سيدنا عبد الوهاب الشعرانى

لقد صنع الخواص عبد الوهاب الصوفى وعبد الوهاب حسنة يحسبونها أى الجانب الذى تولاه الخواص ، وحسب الخواص هذا عند من لا يعرفه

ولقد عاش الشعرانى طول حياته الصوفية ، وهو من أوعية الخواص فالخواص إمامه وهاديه وأستاذه وملقنه ومربيه

والخواص هو مصنع الشعرانى وسببه الذى صعد عليه إلى أبواب الفتح وسموات المنح ومناطق الإلهام والنور وليس فى هذا ما ينقص الشعرانى ، بل فى هذا مفخرته ، لأنه كان خلوده

وصلة الخواص بالشعرانى هى آية الآيات على مقام الشيخ فى الطريق ، وهى آية كبرى على مقام نظر الهدى ، فلقد كان الخواص أميا وكان الشعرانى

عالماً وذلك هو حكم الظاهر أما حكم الصوفية فقد كان الخواص عالماً وكان الشعراني أمياً

علم الأول كان الوهب ، وعلم الثاني كان الكسب والعلم الحقيقي عند الصوفية العلم الذي يقول صاحبه من فيه أنه علمي . هو علوم الفتح لأنه خاصة بصاحبها أما علوم الكسب فهي ليست علوم صاحبها . بل هي علوم الكتب أو كما يعرف الخواص ، علوم الرجل حقيقة ، هو ما لم يسبق إليه وأما من كان علمه مستمداً من النقل فليس ذلك له بعلم إنما هو صاحب لصاحب العلم ،

والشعراني يقول أن من من الله عليه أن كان وصوله وفتحه على يد أمي لا يعرف القراءة والكتابة . ويقول في وصف هذا الأمي

« ورجل غلب عليه الخفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم . إلا العلماء العاملون لأنه رجل كامل عندنا بلا شك والكامل يدق مقامه لكماله في العرفان عن عرفان الأكوان »

ولنترك الشعراني يحدث بحديثه الروحي العذب عن وصوله إلى معارج المعارف الصوفية على يدي شيخه ثم يحدثنا عن ثمار علوم شيخه ومرشده .

« وكانت مجاهداتي على يدي سيدي علي الخواص كثيرة متنوعة ، منها أنه أمرني أول اجتماعي عليه ، ببيع جميع كتبي والتصدق بثمنها على الفقراء ففعلت وكانت كتباً نفيسة مما يساوي عادة ثمناً كثيراً فبعتها وتصدقت بثمنها ، فصار عندي التفات إليها لكثرة تعبي فيها وكتابة الحواشي والتعليقات عليها ، حتى صرت كأني سلبت العقل ، فقال لي اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فإنهم قالوا منعت لا تصل فعملت على قطع الالتفات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله من ذلك

ثم أمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي ، وكنت أفر من الناس وأرى نفسي خيراً منهم فقال لي اعمل على قطع ذلك فإنك خير منهم ، فجاهدت نفسي حتى صرت أرى أرذلهم خيراً مني

ثم أمرني بالاختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل ، فصبرت على ذلك حتى قطعته ، ورأيت نفسي حينئذ أني صرت أفضل مقاماً منهم ، فقال لي اعمل على قطع ذلك أيضاً فعملت حتى قطعته .

ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله سراً وعلانية والانقطاع بالسكينة إليه ، وكل خاطر يخطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فوراً ، فمكثت على ذلك عدة أشهر .

ثم أمرني بترك أكل الشهوات مطلقاً فتركتها واكتفيت بما يسد الرمق ويمسك الحياة حتى صرت أكاد أصعد منه في الهواء ، وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية . ثم أمرني بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى في أن يطلعني على أدلتها الشرعية ، فاطلعت عليها وصار لوح قلبي ممسوحاً من العلوم النقلية لاندراجها تحت الأدلة ، فزادت على حفظ العلوم الوهبية .

ثم يتحدث الشعراني حديثاً طويلاً عن ترقبه للواردات والإلهامات والفتح ، وكيف أمره شيخه الخواص بضروب من المجاهدات لصفاء قلبه واستكمال قطع علائقه الدنيوية . وأخيراً أخبره شيخه بأن بداية فتحه سيكون على شاطئ النيل في مكان حدده له ، وهذا ما يحكيه الشعراني من ذلك قال .

فبينما أنا واقف على ساحل بحر عند بيوت البرابرة وسواقي القمحة أنتظر وأترقب ، إذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معاني القرآن والحديث وأستنبط منها الأحكام وقواعد النحو والأصول ، وغير ذلك من العلوم حتى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين ، فكتبت على ذلك نحو مائة كراسة ، فلما عرضتها على سيدي علي الخواص أمرني بغسلها وقال هذا علم مخلوط بفكر وكسب

وعلوم الوهب سريعة في مثل ذلك صفتها، وأمرني بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر، ووفقت لذلك، وبين علم الوهب الخاص أيسر مقام، فصرت أعرض عليه كل شيء فتح به علي وهو يقول أعرض عن هذا، واطلب ما فوقه، إلى أن كان ما كان. فهذا صورة فتحي بهذه المجاهدة على يدي شيخي فالحمد لله رب العالمين.

ثم يصور الشعراني بعد ذلك فيما يصور من صلاته بالخواص بحر العلم الخاص بشيخه فيصفه بأنه فسيح الرحاب عميق القاع، أمواجه الكشف الصحيح، وعبابه التعريف الإلهي.

ولقد غطس الشعراني كما يقول في بحر شيخه خمس مرات — ومن حق المريد أن يغترف من بحر المعرفة الخاص بشيخه — فلما عام بالسباحة استحال البحر صحراء.

وقد وجد الشعراني في كل مرة غاص فيها صيداً ثميناً، صيداً هو خزانة من خزائن العلم اللدني.

في المرة الأولى وجد خزانة على بابها قفل، ففتحها بسم الله، لا إله إلا الله، فوجد فيها مجلداً، وجد العلوم التي برزت من اللوح المحفوظ إلى هذا العالم على اختلاف طبقاتها من الصديقية الكبرى إلى آخر درجات الولاية.

وتلك الخزانة تشتمل على علوم لا تحصى ولا تدرك إلا بتعريف من الله عز وجل. ووجد الشعراني علوم تلك الخزانة مرتبة منسقة وعلى كل علم اسمه.

ولقد أخرج الشعراني كما يقول جميع تلك العلوم من الخزانة وجعلها من جملة ذخائره ومعارفه وأضافها إلى ما عنده.

فلما غطس في المرة الثانية، وجد خزانة أخرى على بابها قفلان، ففتحها باسم «الله»، فوجد فيها جملة من آيات القرآن العظيم من أول سورة الفاتحة إلى آخر القرآن، ووجد تفسير كل آية من تلك الآيات مكتوبا وهو علم لا تدركه العقول، ولا يستفاد من كتب.

وأخرج الشعراني أيضاً علوم تلك الخزانة وأضافها إلى معارفه وذخائره وضمها إلى ثروته وكنوزه

وهكذا مضى الشعراني منصوراً بسند شيخه ومعارفه القديمة ، فشاد حياته من المعرفة المكنونة في كتب تلك الخزانة وكتبه منها وما فيها من علوم استحوذ عليها واستفاد بها ، وهو متصوف ... عن يمينه الأقلام الصوفية ومن عنده الهدى الصوفي

والمريد ... وتصفو روحه ... كتب عليها وطريق الصوفي هو الذي يستند أو يرمز إلى أسرار الذكر وأسرار أسماء الله الحسنى وفتوحات القلوب

والذكر هو سر التصوف وروحه ، كما أنه عدته وسلاح الإلهام وسريته وليس لصوفي من عمل يقطعه لحظة عن ذكر الله أو التفكير في آياته

وعلى هذا النهج تصوف الشعراني ، فكان تصوفه ذاته ووجوده ، وكان تصوفه تصوفاً إيجابياً كما يقولون لعصره ، والتصوف المتقدم

فقد ربى الشعراني آلافاً من المريدين والتلاميذ المعاصرين له وخلف منهم مدرسة إيجابية تذكر الله وتدعو إلى هداه ولا تزال كتبه تروج وتمنح الهدى واليقين للآلاف من التلاميذ والمريدين

## الشعراني في مدرسة خوند

استقر الشعراني بمدرسة أم خوند بعد أن [illegible] مسجد الغمري بشهور [illegible] وخمسة [illegible] وبات أيام [illegible] جيعان وقضى أيام [illegible] جميعها كما يقول الشعراني

وفي مدرسة أم خوند دخل الشعراني دوراً جديداً من أدوار حياته الكبرى وابتدأت الخطوط العريضة لمجده العريض ترتسم وتتحدد وتأخذ أبوابها وتتجه إلى أهدافها .

في تلك المدرسة تصوف الشعراني وسلك الطريق إلى الله وفيها كانت مجالسه العلمية [illegible] التي عقدت [illegible] والعلماء [illegible] بالشعراني كإمام [illegible] ينهلون من علمه، ويغترفون من فضله ويلتمسون النور في هديه وكلامه .

كما عقدت تلك المجالس أصداء بعيدة في أفئدة الكبراء والأمراء وأصحاب الوظائف، فلمسوا لدى صاحبها شخصية [illegible] أو تودداً للجماهير وزلفى لديهم، فقد أصبح الشعراني على شيء [illegible] كما غدا صاحب صوت وكلمة عالية في مصر، ومسموعة في استانبول عاصمة الإسلام ومقر الخلافة التي تدين لها مصر بالتبعية والولاء

ولا يخلو الأمر أيضاً من أناس كانت هذه تقتضب العصب لدى [illegible] نجمه وتلألأ و [illegible] وتتصل بالأحاديث الساحرة عن [illegible] وعجائبه

# الشعراني والخليفة

وجاء السلطان سليم خليفة العالم الاسلامي إلى مصر زائراً فكان يومه عيداً، وكانت أمامه مصر تاريخها، وكان القرب منه أو التشرف برؤيته غرام وجهها ومطمعها.

وحف به الأمراء والكبراء وهرع إليه العلماء والفقهاء يأملون في الظهور [illegible] ولائه.

وبقي رجل واحد لا يسعى إلى أمير المؤمنين ولا يمشي في ركابه ولا يحني رأسه [illegible] التي عرفت في المراسيم التركية.

وارتفع همس إلى السلطان سليم [illegible] فاسم الشعراني [illegible] فلا يمكن أن [illegible] ولا يمكن أن يتوارى، ولا يمكن ألا يلمس [illegible] عظيم عقله.

وحدثت الكرامة، أو حدثت الآية التي طالما أكرم الله بها رجاله وعباده الذين عفوا عن الدنيا، فسعت إليهم الدنيا.

أجل لقد سعت الدنيا، سعت الخلافة التركية بجلالها وأبهتها إلى الرجل العابد القانت المتواضع المعرض عن الدنيا وأساليب الحياة.

سعى الخليفة العظيم إلى الصوفي العظيم فكان [illegible] الدنيا والآخرة [illegible] دهشة الحاشية وعجب الأمراء [illegible] والفقهاء أن السلطان سليم طرق باب الشعراني.

وكان يوماً عظيماً [illegible] الرجلين [illegible] ومن ذلك اليوم لم يستطع حاكم في القاهرة أن يعصي للشعراني أمراً أو يرد له طلباً.

وكان القضاء في مصر خلال تلك الحقبة من التاريخ للقاضي يحيى ابن عبد القادر الأ[illegible]مكي، وكان في طبعه حدة [illegible] السلطان سليم على مصر قاهر [illegible] وحصص جائزة بقتله

واختفى القاضي طويلا حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت به حياته انطلق إلى الشعراني شاكيا لائذا، وتعهد للشعراني أن يقيم مسجدا لله إن أنقذه الله من شر خصمه ونجاه من تلك المحنة.

وابتسم الشعراني وتناول عودا رفيعا من الأرض وقال له اذهب فالق الحاكم بهذا العود ولا تخش سوءا ولا شرا.

فتردد القاضي وأدهشه هذا الأمر، فقد تشفع له الأمراء والسادة فلم تغن شفاعتهم فكيف يستجيب الحاكم بعد ذلك، ولا شفاعة اليوم، ولا وساطة إلا عود صغير من الشيخ.

ولاحظ أتباع الشيخ تردده فتأثروا وقالوا له اذهب وسر على بركة الله فالشيخ لا يمزح ولكن في الأمر سرا عرفه، وأسرار الشيخ وصحابه لا تنكر ولا تجحد، ومضى القاضي على وجل فلقيه الحاكم حتى إذا دنا من مجلسه ألقى العود أمامه، وبين عجبه ودهشته، هب الباشا لاستقباله والاحتفاء به، وأعاده إلى منصبه وأصدر أمرا بالعفو عنه.

تلك رواية كتب المناقب، وفي رواية أخرى أن الشعراني التمس من السلطان سليم العفو عن القاضي المهدر الدم، فأجابه إلى طلبه وقبل شفاعته.

وسواء كانت الرواية الأولى أو الثانية، فقد غدا القاضي يدين بحياته للشعراني ويدين أصحابه، فسجد لله مخلصا للشعراني ونجح مطلبه والتمسه.

وابتاع القاضي أرضا فضاء في أطراف حي باب الشعرية، ليقيم فيها المسجد الذي وعد به، وقبل أن يبدأ القاضي في البناء عدا أحد الأمراء الأتراك على الأرض فاغتصبها وقرر أن يقيم عليها بناءه.

وتصدى للأمير التركي رجل من أصحاب الأحوال فأنذره بسوء العاقبة إن لم يترك هذه الأرض التي قدر لها أن تكون مسجدا لله ومقرا للشعراني حيا وميتا.

وصحب الأمير التركي وأعلن خشيته وبعد السحرته للادعاء أنه لا يؤمن بالمجاذيب ولا يصدق الكرامات و ... لا يؤمن بمثل هذه الأمور صنا لا ... الأمر .

ومضى ... في ... أخا ... الأمير بعد أيامه ثم ... سوت ولم تمض أسبوع ... حتى ...

وأسرع القاضي يحيى ... في الأرض فبنى عليها مسجدا عظيما وسع الرحاب هو المسجد الذي عرف في التاريخ باسم مسجد الشعراني وبنى في المسجد زاوية انتقل إليها الشعراني بأهله . بعد أن جعلها القاضي وقفا عليه وعلى أسرته . وغدت الزاوية بعد ذلك جزءا من تاريخ الشعراني لأن بها كانت أعظم أيامه . ولأنها غدت من أعظم مراكز العلم والتصوف في العالم الإسلامي

وحضر مؤرخون كثيرا من الآيات هذه الزاوية ولكنهم لم يعثروا على آثار ... الشعراني من شيخه نور الدين الشوني ، ... هذا الأمر والشوني يتحدث عنه رواة بأنه كان يجتمع برسول الله صلوات الله عليه يقظة ومناما

وبعد أيام ... نور الدين الشوني يقول للشعراني أن ... في مكان ... وقال إن هذا ... من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه

وحضر الشعراني فكان ما ... حتى ... أن ... وأسراره

# زاوية الشعراني

لعبت الزوايا والمساجد في تاريخ الإسلام دوراً كبيراً خطيراً ، فقد كان المسجد مكتبة ومدرسة ومصلى ، كان معهداً لتربية العقول ، ومعهداً لتطهير القلوب ، بل لقد كان مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في المدينة ، ثكنة حربية تتعلم فيها الصحابة تحت قيادته فنون القتال ، من ضرب الرماح إلى رشق السهام .

والذين تربوا تحت ظلال المساجد في تاريخ الإسلام ، هم علماؤه وفقهاؤه ، بل وفرسانه ومقاتليه أيضاً .

ولقد خطا أحمد بن طولون خطوة أخرى في رحاب المساجد فألحق بمسجده الكبير صيدلية تداوي المرضى ، وتوزع الدواء بالمجان على الفقراء والمحتاجين ، وبذلك تضاعف نشاط نحو القوى الروحية والفكرية والمدنية في العالم الإسلامي ، ومن يستقرئ تاريخ الإسلام من تاريخ الخطط ، يعرف الأعمال الخالدة التي حققتها المدارس الكاملية والناصرية والظاهرية والأزهر .

من تلك المساجد شعت أنوار المعرفة التي حملت معالم أركان الحضارات وأطول هذه المساجد أنوار المعرفة إلى ساحات العقول الإسلامية وأصبحت هدى الحياة أكثر من عشرة قرون ومكتب اللغة الإسلامية في الأرض حتى كانت تصل في شتى الكوكب الأرضي .

وزاوية الشعراني كانت في القرن العاشر الهجري منافساً خطيراً للأزهر بل لقد كانت الناحية التعليمية فيها أكبر مما يطلق الأزهر ، وكانت سبل العيش لطلابها أيسر وأهنأ ، وزاوية الشعراني جزء لا يتجزأ من تاريخه بل إن تاريخه ليفقد جانباً مضيئاً ساحراً لو أهمل الحديث عنه .

والحديث عن زاوية الشعراني ، يتفرق ويتشعب لمن يريد أن يحيط

بألوانها وصورها ، من هو [illegible] حدث في حاجة إلى كتاب خاص ، ودراسة مستقلة ، فلقد نهضت [illegible] الزاوية بما يساوي جهد وزارتين من الوزارات التي نعرفها أعني [illegible] الشئون و[illegible]

ونحن هنا نحاول أن نعطي صورة سريعة لحياة الشعراني داخل الزاوية ، وصورة سريعة لآثارها في المجتمع المصري

حول الشعراني الزاوية [illegible] واحد للعبادة ومدرسة للعلم والتصوف [illegible] للتصوف [illegible] ومسجد للصلاة وإقامة الشعائر ، وتكية للفقراء والمحتاجين ، وكان هو قطب الرحى لهذه الحركة الهائلة

ولقد أوقف عليها القاضي [illegible] أوقافاً وأرزاقاً ، كفلت الحياة لموظفيها من المؤذنين والقراء والأئمة وخدمها

ولكن الحياة قد اتسعت داخل الزاوية ، فقد كفل اسم الشعراني لزاويته مكانة عالية فأقبل عليها الراغبون من كل حدب ينسلون

أقبل عليها الأمراء والسادة ، يوقفون عليها أملاكهم وأموالهم ، ويقدمون إلى طلابها المنح والهدايا على اختلاف أنواعها

وأقبل عليها [illegible] المريدين والصالحين لهم من الفقراء الذين أعسروا فلم يستطيعوا [illegible] ، بل لم يستطيعوا الحياة الكريمة فكفل لهم الشعراني داخل زاويته العلم ، [illegible] من [illegible] كما كفل لهم الحياة الكريمة بأوسع معاني تلك الكلمة .

حتى لقد أصبح للمتزوجين منهم مكاناً في الزاوية يقيمون فيه مع أولادهم وزوجاتهم منقطعين [illegible] لا يعنون من هموم الرزق كثيراً ولا قليلاً ماداموا قد انقطعوا للعلم ، ومادامت أخلاقهم [illegible] رضي الله عنه ولقد بلغ عدد طلاب الزاوية في أول أمرها مائتين [illegible] وعشرين [illegible]

وعدد الشاعر حديثاً [illegible] هذه الزاوية ، وعن خيرات

والنعم التي تجرى في ساحاتها فلقد كان يعد لطلابها من الخبز كل صباح أردبا وثلث الأردب من أنقى أنواع القمح .

أما ميزانيتها عن عام ، فعشرة قناطير من عسل النحل ، وعشرون قنطاراً من عسل القصب ، وأربعين أردبا من الفول ومن الكشك ستة ومن الأرز مثله ، ومن البسلة والعدس ستة وعشرين أردبا . . . وهكذا .

فإذا أقبل العيد ، عيد الفطر ، كانت ميزانيتها من الكعك ستة أرادب غير الهدايا ، ومن الجوز والبندق والخروب والتمر والزبيب والتين مقدار خمسة قناطير ، ومن الفواكه شيء لايقع تحت حصر . ويكفى أن نذكر أن ميزانية الزاوية من الطبيخ في العام كانت أكثر من ألفين

ولم يقتصر الأمر على هذا النعيم فقط ، بل شملت رعاية الشعراني مريديه وتلامذته في أوسع الآفاق ، فهم أبناؤه وأحبابه في الله ومن حقهم عليه أن يدبر أمورهم كافة ، ومن تدبير أمرهم أن ينظر في أمر استكمال دينهم ، ومن كمال الدين الزواج ، ولهذا زوج الشعراني في زاويته أربعين رجلا من مريديه قام عنهم بالمهر ونفقات الزواج وحرص على تزويد زوجاتهم بكل شيء يخطر على العقل من شئون النساء ولوازمهن ، حتى اللبان الشامي والحجازي والشمع والخضاب ومراتب أنواع الزينة وألوان العطور ، وأدوات التطرية والتجميل

ومن كمال الدين الحج إلى بيت الله ، ولهذا أرسل الشعراني أفواجا من تلامذته إلى الأرض المقدسة باذلا في سبيل راحتهم والعناية بأمرهم مثل مابذل في أمر زواجهم ، من الاهتمام العجيب بكل دقيقة وصغيرة ، مما يدل على شفافية ذلك الروح الكبير ، الذى شمل حبه وحنانه كل من أحاط به ، أو لاذ برحابه

ولم تقف مكارم الشعراني عند هذا الحد ، بل تحدثنا كتب المناقب بأنه كان يقوم بتزويد العلماء والفقهاء والمشايخ في مصر وغيرها بالغذاء والكساء والمال ، حتى لكأن كل فقير من أهل العلم أمانة في عنقه ، ويحدثنا الشعراني

بأنه هناك بالزاوية عدداً لا يحصيه عد ولا يحيط به حصر من الشيوخ القراء آلافا مؤلفة

أما ضيوف الشعراني ورواده في زاويته، والذين قدروا في كتب التاريخ بحوالي مائة زائر يوميا فقد كان يشبع معهم سخي اليد سخي القلب سخي العاطفة

ومع هذا العدد الضخم وهذه النفقات الطائلة التي تحتم الشعراني لم يحبس عن الجيران في زاويته من كان ذهبا حيثما اتفق، وفي وسط هذا النعيم والخير العميم، كان الشعراني يحض نفسه على جرعة من ماء وتمرات يقمن صلبه.

تلك هي الناحية المادية من زاوية الشعراني. أما الناحية الروحية فيها، فهي الوجه الأكثر روعة وإشراقا. فلقد شهد مؤرخون من معاصريه بأن زاويته كانت أعظم المنارات العلمية والتعبدية في العالم الإسلامي خلال القرن العاشر الهجري.

فلقد كان الشعراني أوسع أهل عصره علما، وأعلاهم كعبا في التصوف والمحاسن الأدبية، كما كان بزهده في النفس وأخلاقه لا يطاولون قوة، وبتلك المظاهر العلمية والروحانية النفسية طبع الشعر في زاويته وفي مريديه وتلاميذه فأقبلوا على دراسة العلوم الشرعية على اختلاف أنواعها وتقوم أبحاثهم الصوفية على اتساع آفاقهم وشمولها ودقائق أسرارها ومكارم أخلاقها

وكان قراء القرآن الكريم فيها يواصلون القراءة ليلا ونهارا حتى لا تخلو الزاوية دقيقة واحدة من قراءة قرآن.

وبجوار قراءة القرآن، احتفلت العلمية، فلا يفرغ قارئ في الحديث، حتى يبدأ قارئ في التفسير، وما ينتهي حتى يشرع ثالث في قراءة التصوف ولا ينتهي حتى يليه قارئ في الفقه، وهكذا آناء الليل وأطراف النهار من غير انقطاع.

وحدث المناوى وصاحب طبقات الشاذلية أن الناس كانوا يسمعون لزاويته دويا كدوى النحل ليلا ونهارا

وبجوار هؤلاء وهؤلاء ، كان العباد والذاكرون والمنقطعون للذكر والعبادة حتى ليقول الشبلي المؤرخ بأنه لم ير في مشارق الأرض ومغاربها خيرا من زاوية الشعراني ، علما وعملا وتصوفا وأدبا

ولقد خرجت تلك الزاوية الخالدة أعظم علماء القرن العاشر الهجرى وأكبر متصوفيه . لقد كانت زاوية خالدة ، وكانت زاوية الخالدين

# إلى الملأ الأعلى

حدثنا الشعراني عن سلوكه إلى الله على يد شيخه الخواص، وكيف أخذه الخواص في تدريب الطريق وتعليمه، وأخذ عليه العهد ولقنه الذكر وأعطاه الورد وأخلاه عما سوى الله وأمده من الفتح الإلهي والهبات الربانية اللدنية بما سيكون منه في مكان معلوم مقدر بروضة المقياس على شاطئ النيل.

ثم حدث عن أحاسيسه النفسية في أيام تربيته وتصوفه، وكيف تسللت نسمات العلوم الوهبية إلى قلبه فكتب منها ما شاء الله أن يكتب، ثم عرضه على شيخه فأخبره بأنها لا تخلو من علوم ظاهرية، وطلب إليه محوها، وانتظار علوم أكثر صفاء ونقاء.

وتكرر الأمر بينه وبين شيخه، حتى جاء الفتح الإلهي، وكانت بدايته أن ألهم علم آداب العبودية في يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة للهجرة.

فلما عرض ما وهبه الله في هذا اليوم على شيخه، قال له: دام أمرك وعلا شأنك، ودوّن ذلك وابن على ما كتبت، فسجل الشعراني الفتوحات الأولى في كتابه «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية».

وتوالت المنح والفتوحات على الشعراني، فعظم أمره وعلا قدره وسرى صيته، وأتيح له أن يهب الفكر الإسلامي شيئاً مما منحه الله به، فطفق ينشر علومه في مجالسه العلمية، وعن طريق رواته مسيرة عالية ومحصلاً من حقائق العلم الكبرى، ومنهلاً عذباً سلسبيلاً للأمة المحمدية.

ثم أقبل الشعراني على التحرير والتأليف في شتى فروع المعرفة حتى وهب المكتبة الإسلامية أكثر من مائة كتاب في التصوف والفقه والأصول والتفسير والحديث والنحو والصرف والكيمياء والأخلاق وغيرها من ألوان

العلوم والمعارف. وقد يستغرق بعضها خمسة مجلدات، ووقع الكثير منها في مجلدين. وأكثر هذه المؤلفات لا يزال مخطوطا وموزعا على دور الكتب في أرجاء العالم.

ولقد أحصى المستشرق «بروكلمان» أكثر من ستين كتابا مخطوطا متناثرة في دور العلم العالمية. ويذكر لنا على مبارك باشا أن الكتب التي رآها للشعراني أكثر من سبعين كتابا.

وبلغ الشعراني في عصره مكانة علمية حسبنا في الدلالة عليها أن أحد تلاميذه كتب سؤالا عن فقرات وردت في كتاب «العهود المحمدية» للشعراني وقدمه إلى شيخ الإسلام الصوفي الحنفي، فامتنع شيخ الشيوخ عن التعليق عليه، قائلا: إن الشعراني قد أحاط من العلم بما لا نحيط به، وقد قرأ من الكتب ما لا نعرف له اسما، وإنه لو ادعى تأليف ما وجد في مصر مؤلفا؛

تلك لمحة عن مكانة الشعراني التي قال له شيخه الأكبر على الخواص: «تم أمرك وعلا شأنك وروى قلبك».

وكان من تمام الأمر للشعراني، أو من تمام المقابلة في حياته، أن مكانته العلمية مشت جنبا إلى جنب مع مكانته الدنيوية.

فقد أصبحت زاويته تسهم بجهودها في توجيهات الحكم في مصر، بل وفي الامبراطورية التركية بأسرها.

وبلغ من اعتراف الشعراني بمكانته الدينية أن يأتي إليه الوزير الأعظم على باشا قبل سفره إلى تركيا ليقول له: «نحن مقربون للخليفة فهل لك من حاجة نرفعها له؟» فيجيب الشعراني قائلا: «ألك حاجة عند الله؟ إننا مقربون إلى حضرته».

ونرى واحدا من حكام مصر هو الأمير حسن بك صنجق يتتلمذ على الشعراني ثم يقبل على ربه ويقبل على دينه حتى يلازمه في زاويته ليلا ونهارا تاركا الإمارة والحكم.

ولكن الشعراني لا يرضى عن تلك الصحبة لأن فيها مستصرفا لمصالح الرعية وهي أمانة في عنق الأمير وواجبه الأول أن يتخصص لها ويتفرغ لشئونها

ولكن حب الأمير لشيخه الشعراني كان أكبر من حبه للإمارة وجاهها، والحكم وسلطته ونفوذه، فعز عليه وكبر عليه أن يفارق الشعراني ومجلسه وما فيهما من أنس وعلم وتقوى، فاعتزم أمرا عجبا سره الأكبر يتمثل لدى التصوف والحب في الله

وفي اليوم التالي تجلى هذا الأمر فيما الشمس فرق الأمير أمواله وأعتق عبيده، وأوقف أملاكه على وجوه الخير، واستبقى من هذا الثراء العريض خاتما ثمينا من ياقوته، وكان ثمنه نادرة وقليلا من المال. أما الرخام الفخم شيده وأمرا نفيسا فقد عزم الأمير أن يبني فيه ضريحا ومرقدا لشيخه الشعراني وفاء وحبا

ووقف الأمير على أستاذه فقيرا متجردا يستمد على يديه طريق الهدى واليقين، بلا عائق من حكم ولا مانع من إمارة

ولكن الشعراني، فيما هو رجل ترك من الدنيا شيئا لم يتركه الشعراني وزهد زهدا يتصل بحياته كل زهد. ثم طلب من تلميذه أن يترك قليلا في بناء الضريح حتى إذا أحس الشعراني بأن ساعة صعود روحه إلى بارئها وهاديها قد دنت طلب من الأمير أن يتم الضريح الذي اعتزم إقامته

وما شيد الضريح وارتفعت منارته وانتهى المؤذن من آخر قطعة فيه في نفس اللحظة أمسك لسان الشعراني وخمدت أطرافه فقد استوفى أنفاسه.

وكانت وفاته في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للهجرة وكانت آخر كلماته: أنا ذاهب إلى ربي الرحيم الكريم

# رسالة التصوف

## الشعراني والروح الصوفي

تكلمنا عن حياة الشعراني وما اتصل بها من أحداث تاريخية ونحاول الآن أن ندرس ما تركه للفكر الإسلامي من علوم ومعارف ، وما تركه للروحانية الإسلامية من جولات صوفية ومعارف لدنية ، وما كان لهذا وذاك من أثر في توجيهات الحياة الإسلامية العقلية والنفسية .

والشعراني لسان صدق من ألسنة التصوف التي أفصحت عن آياته الكبرى ومعارفه من عرفاناته العظمى التي قامت في معترك الغربة الروحية والعقيدة ترشد الحائرين إلى الله ، وتهدى الحائرين المتعبين إلى شواطئ السلام واليقين .

وله بعد ذلك في التصوف رسالة ما أحسب أن أحداً استطاع بعد الغزالي من أعلامها أن جاهد في سبيلها ، مثل ما عمل الشعراني وجاهد .

وتلك الرسالة ، هي تنقية التصوف من الدخيل والمحدثات وتجليته نهجا إسلاميا تتمثل حقيقته في هدية طاعة لله وأحكامه ، والعبودية الصادقة والمحبة الروحية بأسرارها وآدابها السامية لا يعرف حلولا ولا اتحادا ، ولا يقر الشطح والمسخ الفسوق .

وربط المعارف الصوفية بعلوم الإسلامية الظاهرة ، والخروج بالأمة الإسلامية من الأحداث والخلافات إلى روح التيسير وحبوه إلى اليقين الثابت ، والعمل الصالح والوحدة القلبية والفكرية وإقامة أسس الحياة على الرحمة والمحبة لا على الشدة وبغض البعض

والشعراني ككل الصوفية مفتاح شخصيته في تصوفه وروحانيته ، فالشخوص الصوفية قد يتراءون أشباحا باهتة الظلال للعين المادية وقد يتراءون في قسمات الباحثين المدققين في أردية السماحة والبساطة حينا وفي أردية الغموض والإبهام أحيانا .

ومرد هذا أن لهم أذواقاً روحية تخالف ما ألف الناس واعتادوا من ألوان وأخلاق، وما ألف الناس واعتادوا من معارف نظرية وعقلية، ولهذا تخطئهم العين المجردة، كما تخطئهم العدسات المادية.

إننا في حاجة إلى عدسات روحية خاصة حينما نعرض لتلك الأرواح، كما نحتاج إلى مكبرات خاصة حينما نتطلع إلى نجوم السماء.

فشخصية المتصوف العملي إذن تتمثل في روحه، فكلما اقتربنا من مآثره الروحية تجلت لنا آياته، وتجلت لنا شخصيته، وتجلت لنا علاقاته الروحية والعملية، لأنهم شخوص كونتهم العقيدة، وصاغتهم الروحانية، ولهذا نقترب من فهمهم ونقترب منهم، كلما اقتربنا من التصوف ومن فهم التصوف.

ولذا فلا بد لنا — ونحن بصدد شخصية الشعراني — من أن نتحدث عن التصوف، فالحديث عن روح التصوف هو المدخل لدراسة كل متصوف إسلامي.

ودارس التصوف الإسلامي، يرى نفسه لأول وهلة، وسط أمواج صخابة، وبحار زاخرات، بل وسط دوامة مغرقة الحلقات، لا يجد لها شاطئاً، ولا من موجها عاصماً.

لقد امتلأ موكب التصوف بالدخلاء من كل نحلة ولون، كما دست على المعارف الصوفية معارف تكاد تشمل فيما تشمله الكوكب الأرضي كافة.

وطريق البحث بعد ذلك ليس معبداً بل ليس آمناً، فالباحث يجد أمامه مزيجاً من الأحجار المشكلة المتصدرة التي امتزج فيها الحصى بالجوهر، وامتزجا أحياناً حتى يحتاج الدارس إلى معمل فكري للفصل والتمييز.

وما يجده الباحث من حر الجواهر إنما يجده متناثراً لا يكون وحدة فكرية، ولا يقيم مبحثاً علمياً متناسقاً، فهو بحاجة إلى صبر مدده من عند الله، حتى يستطيع أن يؤلف بين هذه الأجزاء، ويرد كل جوهر إلى عقده، حتى يستقيم البحث، وحتى ينجلي جمال اللؤلؤ المكنون.

وكثيراً ما يجد الباحث نفسه أمام ألوان فلسفة مادية، وألوان من التأملات الجامحة، وألوان من الشطحات الممقوتة دخلت على التصوف، وهي ليست من روحه ولا من عقيدته، وأعسر من هذا وأشد قسوة أن هذه الألوان قد دسها المغرضون والمريضون في كتب الأئمة والقادة من رجال التصوف، ومضى هذا الزيف على التاريخ حتى أصبح جزءاً منه.

وكتب المذاهب التي عرضت للتصوف ورجاله كثيرة ومتنوعة، ولكن كثرتها لا تهدي السبيل ولا تنير الطريق، ذلك أنها طوائف من الأحداث تسودها المناقضات والاضطراب أحياناً، ويجري فيها الدس والتزييف تارة والإبهام والغموض تارة أخرى.

وتأتي بعد ذلك دراسات المستشرقين الذين ساهموا بقصد أو بغير قصد في تشويه التصوف وتغيير وجهه، لأنهم اتجهوا بدراساتهم إلى ألوان من التصوف لا تعبر عن حقيقته ولا تعبر عن شخصيته، اتجهوا إلى النزعات الفلسفية، والشطحات القلقة، وهو لون دخيل على التصوف تسرب إليه في إحدى مراحله المتأخرة، حين انتقل من القلوب إلى العقول، ومن التعبد إلى التأمل حتى أصبح تفلسفاً لا إحساناً، طريقاً إلى الذات، وطريقاً إلى المعرفة، وحين انحرف بعض المنتسبين إلى التصوف إلى نظريات في الوجود ونظريات في المعرفة لا يعرفها الإسلام، ولا يرضى عنها الأئمة الصوفية أنفسهم.

ثم جاءت في أعقابهم كتب المؤرخين المعاصرين من رجالنا، فإذا بهم يجرون في أعقاب أساتذتهم من رجال الاستشراق، وإذا بهم يقعون كما وقع أساتذتهم في أحابيل خصوم التصوف القدامى الذين دسوا عليه وشوهوا آثاره، وإذا بهم أيضاً يعنون بالشكليات ويعرضون بالشاذ من الآراء، ويولعون بالنادر من مشكلاتها وعويصها، كما أولع الأوربيون بها من قبل. المشكلات المعروفة التي استنبطوا منها تارة فكرة الحلول والاتحاد، وتارة نظرية وحدة الوجود، وإذا بهم يتحدثون أيضاً كما تحدث شيوخهم عن صلات

بين التصوف الاسلامي والوثنية الهندية، وبين التصوف المحمدي والروحانية المسيحية.

ودارت أقلامهم في هذا المجال وشطت بهم السبل حتى أسلمتهم إلى ضروب وصور قد تنتسب إلى كل نحلة عرفها العقل الانساني ماعدا النهج الرباني الاسلامي.

والحقيقة أن جوهر الاسلام [illegible] عن هذه الألوان والصور [illegible] القرآنية [illegible] وهو أصدق صور [illegible] المحمدي [illegible] أصدق القرآن.

فهي إذن محاولة جريئة وشاقة تلك التي نحاولها، نحاول تنقية التصوف مما علق به [illegible] في [illegible] حتى [illegible] الأولون الذين عاشوا في تجاربه ومجاهداته وأنواره ومعارجه.

ولقد شهد التاريخ محاولات سابقة في سبيل هذه الرسالة العليا، فلقد قام حجة الاسلام الغزالي في القرن الخامس الهجري بحركته الاصلاحية الكبرى في سبيل تجديد التصوف وتنقيته من الآثار الدخيلة التي دسها عليه خصوم الاسلام من أصحاب المذاهب الباطنية، ومن البدع والشعوذة التي أدخلها عليه جهلة العوام وبعض طوائف المتحررين من الأخلاق، كما قام بهذه الرسالة العظمى بقوة ونجاح القطب الشعراني في القرن العاشر الهجري.

ونحن اليوم في حاجة ملحة إلى تصفية جديدة، وتنقية جديدة، وحركة تجديدية أخرى. نحن في حاجة إلى جهود متوفرة لدراسة التصوف وتنقيته من الشوائب، ودراسة [illegible] التاريخ وما دخل الروح وما دس عليه ونسب إليه وخنق روحه ونتعلق بأردانه حتى نرده إلى فطرته الأولى ونرده إلى

القلوب رشدا، وفي الأخلاق طهارة، وفي الثقافة عمرانا وتحررا، بل إلى الإنسانية بأسرها سلاما وسعادة وأمانا.

وإني لكبير الأمل، في أن تكون تلك الدراسة أولى تقدمة لها سابقة موفقة لتلك الحركة المباركة، وعلى كل حال فمنه أرجو أن يحقق رجاءهم ويهدي إلى سبله

# التصوف الإسلامي

## والمعارف العالمية

والتصوف الإسلامي هو على [illegible] محاولات عملية للكمال الروحي والعقلي [illegible] الجهود العالمية ولا أقول [illegible] الكمال الروحي [illegible] الوسائل والغايات فقد حاول قوم أن [illegible] الكمال بالتصفية والمحبة، كرجال [illegible] الإشراقية، وحاول قوم أن [illegible] بالنسك والطهارة كزهاد الهند [illegible] وحاول آخرون أن [illegible] بالاستغراق والتأمل، كأصحاب المذاهب [illegible]

وعند هؤلاء وهؤلاء [illegible] الكمال [illegible] ومذاهب اعتنقوها وعاشوا لها [illegible] في أوائل [illegible] الكمال، ولا [illegible] أصيلة، لأنها [illegible] استنفدت الوسيلة

وقد ترقى أرواح هؤلاء وهؤلاء حتى تأتي [illegible] الإلهام، وبما يشبه الخوارق والكرامات، إلا أنها [illegible] وتشقى، لأنها [illegible] داخلها ولم تقتبس [illegible] من خالقها [illegible]

أما التصوف الإسلامي، فقد [illegible] في الزهد والنسك والتصفية والمحبة والتأمل والطهارة، مع هؤلاء ومع هؤلاء، ولكنه تشابه عرضي وتقارب شكلي، لأن التصوف الإسلامي ليس [illegible] من مذاهب الفلسفة، و[illegible] من [illegible] تلك الوسائل [illegible] فيه الفلسفة [illegible] وما يشبه الزهد والنسك من خلائق أقوى الروح حتى تأتي بالعجائب والغرائب

وإنما التصوف الإسلامي [illegible] في [illegible] وكمال في الطاعة، وكمال في العبودية هو محبة [illegible] ومن [illegible] صفاء، وأنس في جواره، هو أنشودة تشترك فيها القلب والروح والحس والجوارح، أنشودة تسبح بحمد الله لا تفتر ولا تهدأ كأن الجسم دائم الحياة في نفسه [illegible] في الروح دائم الحدة في الإدراك والحس.

[illegible] التسكين [illegible] للمسلم [illegible] وتسمو الأذن كأنما [illegible] الروح [illegible] بكل شيء [illegible] بكل شيء مصلى [illegible] والصوفي لا يبرح محرابه ولا يفارق المصلى، أينما توجه وجهه وسبح بشكره [illegible] في كل اتجاه نصر [illegible] أن الله معه يسمع ويرى.

وما يأتي بعد ذلك من علم وفيض، وما يأتي بعد ذلك من خارقة أو كرامة، وما يأتي بعد ذلك من كتاب روحي أو اشراق نفسي، فهو نافلة، لأنه وسيلة لا غاية، ووسيلة لا هدف.

فمعارف الصوفية إذن ثمرة الكمال في العبادة ومحبة الفيض في الطاعة وأنوار القلب في محبته وبجواره، إنها حلى الطريق، لا أساسه وروحه.

ولا [illegible] سبيل إلى إقامة صلة من الصلات بين التصوف الإسلامي وبين أي لون من ألوان الروحانية [illegible].

ولا سبيل إلى المقارنة بين المعارف الصوفية الإسلامية وبين المعارف الفلسفية والنظرية والعلمية التي جرت على وجه الأرض مع أعمة التاريخ الإنساني.

فتلك المذاهب الفلسفية والعلمية، قد استمدت معارفها من التفوق العقلي تارة، ومن [illegible] تارة أخرى، أما التصوف الإسلامي فمعارفه [illegible] عقيدته الإسلامية، ومددها فيض رباني داخل نطاق تلك العقيدة القرآنية، و[illegible] عقيدته و[illegible] التصوف [illegible] بين أعقب المعارف الروحية الأخرى [illegible] ولم

[illegible] يتساوى عندهما من
الثواب [illegible]

التصوف الإسلامي [illegible] في [illegible] القرآن [illegible]
[illegible] الأحسن [illegible]
من [illegible]

والتصوف هو [illegible] لأنه
[illegible] عامة
[illegible] الله [illegible]
[illegible]

[illegible] الأجنحة
[illegible] أجنحة أخرى [illegible]
[illegible] الأجنحة [illegible]

## الطريق الرباني

### [illegible] في الإلهية

الكلمة [illegible] [illegible] في [illegible] مذهب التصوف الإسلامي، وهو [illegible] الذي تدور حوله [illegible] الصوفية ثم تدور حوله الخصومات بينهم وبين [illegible] الفكر من أصحاب المذاهب النظرية والعقلية، وبينهم وبين رجال العلم الظاهري من الفقهاء الذين قدسوا القواعد التي ابتكروها [illegible] وتنادوا [illegible] دون سواها [illegible] كل ما عداها خطأ.

و[illegible] [illegible] [illegible] الكشف [illegible] لا [illegible] [illegible] من أهداف المتصوفة الإسلاميين ولا غرضا من أغراض العباد والرهبان.

[illegible] منهم الأولى عبادة [illegible] خالصة لله دون سواه، عبادة تقربهم منه وتدنيهم من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يجعلوها [illegible] و[illegible] ويكونوا من قلبهم [illegible] وأخلاقا، وسموا في عبادتها سموا طويلا، فكانت قلوبهم، وكانت حياتهم [illegible] ومن [illegible] عبادة كل دونهم وكان [illegible].

والمتصوفة هنا هم [illegible] لا المتكلمون، هم الذين تطلعوا فيه فوق [illegible] والأوراق [illegible] [illegible] التصوف حتى تكون [illegible] [illegible] [illegible] أو [illegible] [illegible] حتى في [illegible] المعجزة حتى [illegible] [illegible] الله مع [illegible]، [illegible] [illegible] من [illegible] فهو سكر أو [illegible] أو تصرع أو نحوه.

وتلك [illegible] [illegible] [illegible] من الله وقربتهم [illegible] [illegible] وأنس بهم وأنسوا [illegible] ورضي عنهم ورضوا عنه [illegible] أنوار المحبة، وفاضت حياتهم بالنور والسعادة والأنس والقرب، [illegible] لهم فلسفة في المحبة جعلوها شرعة ومنهاجا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] دونهم

وكان يوجههم ويقوم على تهذيبهم وأخلاقهم ويعمل على تعليمهم
وكانت معارجهم

ثم أفاض الله عليهم المعارف اللدنية ... ومنحهم الكشف الباطني
هبة وعطاء ورزقهم فوق هذا رزقا أعزوه ... فكان الناس يصبون إليه
حبا ويعودون إليه أحيانا، ومن هذا الناس ما قصص عنه الأثر المشهور
«عبدي أطعني أجعلك ربانيا تقول للشيء كن فيكون».

ومن هنا نشأ ما يسمى بالكشف الباطني والعلم الباطني
والخوارق والكرامات لم تكن هدفا ولا غرضا ولا أملا لدى الصوفية،
وإنما كانت هبة ومنحة وعطاء من الله

والكشف الباطني والعلم الرباني، رغم ما دار حوله من جدل وحوار،
وعرفه [illegible] القرآن الكريم وأثبتت
به الأحاديث الصحيحة

قال تعالى «واتقوا الله ويعلمكم الله» «إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا»
«فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما» «قال الذي
عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» «يؤتي الحكمة
من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا».

وقصة موسى والخضر معروفة ومعروضة في القرآن الكريم بعرض
فنان تجسد فيه مكانة العلم اللدني، والمعرفة الباطنية التي أوتيها الخضر من
لدن ربه

ووردت هذه القصة في كتب الأحاديث الصحيحة بصورة مجلوة ناطقة
بأن العلم لله وحده ثم هو للإنسان عارية يمنحه الله لمن يشاء بما كان له وبما

عن أبي بن كعب، عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال: قام موسى
خطيبا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم. فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه
إذ لم يرد العلم إلى الله فأوحى الله إليه: إن عبدا من عبادي بمجمع البحرين،

هو أعلم منك . قال : يا رب وكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدته فهو ثَمّ . فانطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون وحملا حوتاً في مكتل حتى كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما ، فانسلّ الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وكان لموسى وفتاه عجباً ، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما ، فلما أصبحا قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، ولم يجد موسى مسّاً من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به ، فقال له فتاه : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ، قال موسى ذلك ما كنا نبغي ، فارتدّا على آثارهما قصصاً ، فلما انتهيا إلى الصخرة إذا برجل مسجّى بثوب ، أو قال تسجّى بثوبه ، فسلّم موسى فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى . فقال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ؟ قال : إنك لن تستطيع معي صبراً ، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه .

ثم روى الحديث بقية القصة كما وردت في القرآن الكريم وقال في آخره : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله موسى ، وددنا لو صبر موسى حتى يقص علينا من أمرهما » (١) .

الخضر على علم من علم الله علمه الله لا يعلمه موسى ، وموسى على علم علمه الله لا يعلمه الخضر ، فالعلم الذي علم الله عبداً من عباده لا ينسب إلى بشر ، والعلم صفة من صفات الله يفيض منه على من يشاء من عباده بحكمة يعلمها عند فاطر السموات والأرض ، وسرها عند من أوحى إلى النحل وأنطق النمل وألهم الطير تسبيحه بحمده تعالى « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » .

ويقول الغزالي في الرسالة اللدنية مفصلاً بين العلم الباطني والظاهري ومدللاً على شرف العلم اللدني وسيادته .

(١) رواه البخاري في صحيحه

«وبيان هذا يوجد في قصة آدم عليه السلام والملائكة فإنهم تعلموا طول عمرهم، وحصلوا بطول النظر كثيراً من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات، وعرفوا الموجودات وآدم عليه السلام ما كان عالماً لأنه ما تعلم وما رأى معلماً، فتفاخرت الملائكة فقالوا: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك وعلمنا حقائق الأشياء. فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جميع المكونات وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى فعلمه جميع الأسماء ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، فصغر حالهم عند آدم وقل علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم فغرقوا في بحر العجز فقالوا: لا علم لنا إلا ما علمتنا، فقال تعالى: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فأنبأهم آدم عليه السلام عن مكنونات العلم ومستترات الأمر».

فقرر لأمة عن العلماء والعلم الغيبي اللدني أكمل من العلم المكتسب به

وبذلك فإنهم الذين يقررون أصول الشريعة الإسلامية التي أتت في القرآن والسنة المحمدية، ولكن من عجب أن نصوصه قد هوجموا هجوماً عنيفاً قاسياً ممن هم من المتنورين والعلماء وخاصة فقهاء الحنابلة الذين كان أمامهم الجيلي أحمد الحسني من رؤوس التصوف وأعلامه أخلاقه وتعبداته ولو في حياته وهو القائل: «ليس العلم بكثرة النقل والرواية وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من أحبه واصطفاه».

وأعجب من هذا العجب أنهم يهاجمون هذا علم التصوف في موقف النقد ويعصمونه ثم يقررونه في موقف أخرى، بل تراهم لا هم لأمر. فابن تيمية وهو رأس تلك الطائفة الناقدة نجده يشرح في رسالة معنى الوحي ثم يعقب قائلا

«والإلهام بالمعنى السابق للمؤمنين جميعاً يقين» ثم يتحدث عن الشخص الرباني فيقول: «وهو من أطاع الله واتقاه، ويشهد على ذلك

بالآيات والأحاديث مثلا ويذكر الحديث أبو هريرة الذى رواه البخارى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها » ثم يقول وهذا أخص منه الحديث فى الإمام والمصر

ويقول ابن تيمية نفسه فيما نقله الأكبر فى كتابه « لو أن أصحاب الذكر شجرة وكل عظمة تلك الشجرة وسبح أصحابها أعظم شجرة الذكر يشم المتحدث كلها من اليقظة والتوحيد »

وإذن فإن خصوم المتصوفة فى سبيل الكلام فى التصوف والإلهام والإشراق إنما جمعوا فى أن التصوف حتى إنه والإعراض عن ملذات الدنيا طريقة عميقة وطريقة أهل السوابق والمنة على عنصر الطبيعة

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن عبقرى الشرق الصلاة عندى وأهميتها فى تكوينه ومقامها من عقيدته

« والصلاة عند الهندى أعظم شىء فى بيان عقيدته فتحس كلما اقترب من فهمه كلما اقترب من فهم صلاته . لأن الصلاة عنده لا تنبعث عن طلب أو رغبة أو ابتهال ولكنها تنبعث فى حس فوق الحس وفوق التفكير وفوق الطلب والابتهال . وهى عنده أعلى مراتب الوعى الذى يتاح لسكان الوجود . لأن الروح الإلهى فى اعتقادهم سار فى جميع الموجودات ولا يزال الإنسان محصورا فى أوهاق الجسد . أو فى وهدة الحس على العموم ما دام معتمداً على الحواس أو على العواطف أو على التفكير فى إدراك ما حوله . ولكنه يرتقى إلى مرتبة من الوعى أعلى من مراتب التفكير عندما يدرك الروح خالصا محررا من هذه الأوهاق

فهو لا يصل بالحس إلى شىء أرفع من عالمه وقد يرتقى بالتفكير فى

شيء أرفع مما يدركه الحس ولكنه لا يتجاوز حدود المحسوسات

وهناك مرتبة من التفكير أعلى من مرتبة التعقل المطلق وهي مرتبة التأمل ولا انقطاع [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] يستطيع الإنسان أن [illegible] على جسده ويسيطر على الطبيعة ويرتقي إلى [illegible] ويصنع الخوارق ويخالف العادات .

ثم يقول مثلا عن [illegible] [illegible] سحر الصلاة قد يستغني عن الطعام أياما ولا يستغني عن الصلاة لحظة [illegible] لأن الصلاة هي من صميم قلب الحياة الإنسانية .

ومن سيطرة الإنسان على جسده وقمعه لشهواته وتحمله للمصائب والتجائه إلى الله [illegible] فوق الأحلام وفوق المعرفة قوة [illegible] يسيطر بها على طبيعته ويرتقي إلى حالة [illegible] ويصنع الخوارق .

يقول [illegible] [illegible] على صحة [illegible] وأثره في الأرواح

(لو أن الإنسان [illegible] وجد [illegible] لاستنكره ، [illegible] لا يتصور [illegible] إلا [illegible] المشاهد في [illegible] حتى إذا شاهده تعجب منه وعلم أن عقله قاصر عن عجائب القدرة )

ثم يقول وفي خزائن القدرة عجائب وغرائب ينكرها من ظن أنه لا وجود إلا لما شاهده .

ونجد في [illegible] التعاليم القرآنية للعبادات تعتمد على كلمة الغزالي ، وما نقل عن [illegible] الصالحين [illegible] على [illegible] أو تجارب على هذه الأبعاد [illegible] في السماء [illegible] الأثر [illegible] حقيقة [illegible] ولكنها لا تصل إلا بالفروض والتجارب والتقدير بوسائل التي [illegible] ولا يقوم به البرهان

والعجيب أن دعاة العلم والعقل قد [illegible] ويسمعون [illegible]
الذي [illegible] ويسمون
أنه معقول ومفهوم ، ولكنهم يشككون [illegible] الأرواح وتأثير
العقل في العقول ، لأنهم يريدون أن يلمسوا بأيديهم كيف تؤثر وكيف
تؤثر ، ولا يصدقون هذا ما يقولونه في عالم الحس والنفس ،

ثم يقولون [illegible] المشكلات التي هي هو المشكل الذي يعني ذاته ويعني
موجده – أي الإنسان – ويستمد منه قبس من القدرة الإلهية ،

أجل لا حيلة لنا في هؤلاء الناس الذين يؤمنون بمعجزات الظواهر الطبيعية
التي تدل على الغموض والخصائص ، ولا يريدون أن يؤمنوا قليلاً في
عالم الروح ، بل يريدون متعنتين أن يلمسوا بأيديهم قدرة الله [illegible]
ويريدون أن يلمسوا بأيديهم كيف يلهم الله من أحب من عباده وكيف
يعلمهم من لدنه علماً . لا حيلة لنا في هؤلاء وأمثالهم من المتفلسفين على
جهالة ، إلا أن نقول لهم كلمة شكسبير على لسان هملت : إن في السماء والأرض
يا هوراشيو ، لضروباً من الأسرار مالا تحلم به فلسفتك ،

## هل تتعارض المعارف الصوفية

## مع القرآن والسنة

روى أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي أن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل: هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه.

وكلمة الإمام علي كرم الله وجهه مفتاح من مفاتيح التصوف، ومفتاح من المفاتيح التي تؤدي بنا إلى فهم حقيقة الروح الصوفي.

لأن عماد التصوف وقوامه في المعرفة هو الفهم في الدين، والعمر بالتأويل، فهما يعطيه الله لمن ارتضى من عباده، ومنحة يهبها الله من أحب واصطفى.

وهذا الفهم، وذلك الاستنباط من منح الله لعبده. فلسنا إذن في حاجة إلى أن نقول إن شرطهما هو موافقتهما للكتاب والسنة، فتلك بديهة من بديهيات العقول.

فكما أن العبادات في التصوف هي أمر مشروع مأخوذ من الأوامر والنواهي، كذلك علم الباطن هو معان واستنباطات وفهم في القرآن فوق ما يعطيه العلم الظاهر.

فليس هنالك شطح هنا يعطل فرضاً أو ينقص من الفرائض، ولا فهم باطني يعطل شيئاً من الشرائع، وإنما هو فهم في العبادات وفهم في الكمالات النفسية والتجليات الأخلاقية.

يقول الشعراني في الطبقات الكبرى:

ثم اعلم يا أخي أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بهما انقدح له من

تلك علوم وآداب وأسرار وحقائق يجهلها كثير من فقهاء علماء الشريعة من الأحكام حتى يعلموا ما يعنونه من أحكامهم ، فالتصوف إذن هو علم بعض أحكام الشريعة ، إذ هو علم من عنده تعلق بحظوظ النفس ، كما أن علم المعاني والبيان يعده علم النحو ، فمن جعل علم التصوف علمًا مستقلا فقد صدق ومن جعله من جملة أحكام الشريعة صدق ، كما أن من جعل علم المعاني والبيان علمًا مستقلا صدق ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق

ثم يقول : ولكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من علم الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ الغاية ، ثم أن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآداب ومكروهات .

وتلك منظمة بشعرات من الآيات التي توضح موقف التصوف من الشريعة الإسلامية ومن الأمور التي تهم الصوفي الصادق

فليس من سمة التصوف البحث في فروض الأحكام الشرعية ولا البحث في أصول الديانة ولا الجدل والحوار في المعارف الفلسفية والمذاهب العقلية

وإنما التصوف تطوع بالعبادة ، وهذا التطوع الصوفي جعل أربابه يستنبطون ألوانا من الأدب يعاملون بها أنفسهم وهم يقيمون هذه العبودية وألوانا من الرياضات في الذكر والخلوة والسهر ، وألوانا من المعرفة تزوقت لهم من مراقبتهم لأنفسهم ومحاسبتهم لقلوبهم وعكست لهم في مواجيد الأنس والمحبة ، كما أنهم حرصوا على أنفسهم في خواص حتى صار لهم حساسية مشرقة وذوق مرهف في طرائق العبودية ، لأنهم يشهدون الكمال في معنى العبودية ولأنهم آمنوا بأنها هدف الحياة وغايتها العليا ، أو كما يقول الحسن البصري « أدركنا في زماننا رجالا ينظرون إلى مسائل كأنها شعرة » ولقد أدركنا

وحالاً كانوا يعدونها من الكبائر . وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول ويظهر العجز عن إدراكه ، وهو معنى قول ... للأصفياء . ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس . رواه الترمذي

إن محور التصوف الصادق وذلك دائرته ، وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة وأحكامها كذلك حفظ الصوفية الشريعة بآدابها وروحها وكما أتيح للفقهاء الاجتهاد في استنباط الأحكام واستخراج الحدود والفروع والحكم والتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص ، وكان ثمرة الاجتهاد والاستنباط فكذلك أتيح للصوفية أن يستنبطوا مما فهموا وعرفوا ووضعوا أحكاما في الأمور التي لم ينص عليها ، فهم أيضا استنبطوا آدابا وأذواقا ووجدا للمريدين والسالكين

فالصوفية عملهم مرتبط بالشريعة ، والأدب عندهم أثرها ومكانتها ومقامها في صميم حدود التشريع الإسلامي الظاهري

ويقول الشعراني : من دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة ، وكيف يخرج والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة

ثم يقول : ولكن أصل استغراب من لا إلمام له بأهل الله أن علم التصوف من عين الشريعة كونه لم يتبحر في علم الشريعة . ولذلك قال الجنيد : علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة ردا على من توهم خروجه عنهما في ذلك الزمان أو غيره ، وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عز وجل إلا من تبحر في علوم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفي فقيه ولا عكس . وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم .

صدق الشعراني فإنه لا ينكر على التصوف إلا من جهله علماً وذوقاً ولا ينكر طريق التصوف إلا من لم تثبت له صلاحية في العلم ولا مكانة في المعرفة . أما هؤلاء فمنهم من رجح عقله ولا حجة ؟ والفقهاء فقد سموا التصوف علماً وذوقاً . سموا له لا بقصد له غير . بل سلموا به للصوفية وأقروه . سموا به لأنه أبى لا يعلمه إلا من جربه لأن الاحجية صوفية علامات سيره في نفسه ؟ أي لم تقم في ذاتهم

يقول القشيري في رسالته مدللاً على مكانة التصوف والمتصوفة

« لم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به ولولا مزيته وخصوصيته لكان الأمر بالعكس »

ويسوق الشعراني الأدلة على كلمة القشيري فيقول « وقد أذعن الإمام الشافعي لشيبان الراعي حين طلب منه الإمام أحمد بن حنبل أن يسأله عن رجل نسي صلاة لا يدري أي صلاة هي فقال شيبان : هذا رجل غفل عن الله عز وجل فجزاؤه أن يؤدب »

وكان أحمد بن حنبل يرسل إلى أبي حمزة البغدادي دقائق المسائل ويقول ما تقول في هذه يا صوفي وكان يقول لابنه ناصحاً وموجهاً : عليك بملازمة المتصوفة فإنهم بلغوا مقاماً في الإخلاص لم يبلغه

ويقول محيي الدين شيخ المتصوفة الأكبر في الفتوحات « إن طريق الوصول إلى علم القوم الإيمان والتقوى » « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » والرزق نوعان روحاني وجسماني . وقال تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » أي يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائل من العلوم الإلهية

ثم يقول « فعليك يا أخي بالتصديق والتسليم لهذه الطائفة ولا تتوهم فيما يفسرون به الكتاب والسنة أن ذلك إحالة للظاهر عن ظاهره ولكن لظاهر

الآية والحديث [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
له لآية أو حديث [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أخرى
[illegible] [illegible] الآية والحديث [illegible] [illegible] عنه .

[illegible] ولا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] هذه الطائفة
الشريعة قول [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كلام
رسوله [illegible] ليس [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] والحديث إلا [illegible] الذي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
الظواهر على ظواهرها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عن الله [illegible]
في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على قلوبهم [illegible] [illegible] ومعنى الفتح
في كلام هؤلاء القوم حيث [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والروح
لما جاء به رسول الله [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] لا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
لم يكن [illegible] لأحد من قبله ولذلك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
لا [illegible] [illegible] الطريق ويقول هذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] .

فالمتصوفة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لا [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] الظواهر على ظواهرها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
استنبطوه من الآية أو الحديث هو [illegible] [illegible] [illegible] ولا [illegible] [illegible]
إلا هو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

[illegible] [illegible] [illegible] وحجة التصوف للإمام الغزالي

« واعلم [illegible] [illegible] الله [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
علامة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] الشرع موقوفة على [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وإجماعا .
[illegible] لا يمكن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الشريعة كلها ولا [illegible]

فيه [illegible] واصب [illegible] فكشف [illegible]
فإن قلت [illegible] وضعف العادات
ولا يصره بصر محجوب [illegible] في هذه
الأمور [illegible]
يصير [illegible] على [illegible] فاعلم أنه
شيطان وهو أحمق ،

ثم يقول [illegible] الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى
خاصة ، وأن سيرهم أحسن السير ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، فإن جميع
حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من [illegible] مشكاة النبوة

وهذا ما يقول الغزالي في [illegible]
القلب عما سوى الله ومفتاحها استغراق القلب بالكلية في ذكر الله وآخرها
الفناء بالكلية في الله ،

أجل هذا يقول الغزالي في [illegible] وجها تطهير القلب عما
سوى الله ، ومفتاحها استغراق القلب استغراقا تاما في ذكر الله وآخرها
الفناء في الله حبا وعبادة ، فقد أضفى التصوف على الوجود صورة جميلة
مشرقة ، والبس الإنسان صورة نورانية طاهرة ، وجعل للحياة هدفا وغاية
قدسية عالية ، وأي الغايات [illegible] أعلى من التسبيح والتحوى ، وفناء النفس
في محاريب الأنس والتقوى

يقول سهل التستري ، أصول طريقتنا سبعة التمسك بالكتاب والاقتداء
بالسنة ، وأكل الحلال وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة
وأداء الحقوق ،

ويقول أبو الحسن الشاذلي إذا عارض كشفك مع الكتاب والسنة
فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي
العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام

ولا شطحة مع [illegible] على [illegible] معنى [illegible] بالكشف ولا الالهام ولا المشهد [illegible] عرضه على [illegible] والسنة ، ويقول أبو سعيد [illegible] كل [illegible] خلافه الظاهر فهو باطل .

هذا هو [illegible] وشرائطه وحدوده ، [illegible] من [illegible] الصوفية [illegible] صورة يجحد المنكرون

يقول [illegible] من خصوم الصوفية وأعدائهم [illegible] قط عن أحد من القوم [illegible] صلاة [illegible] الصوم أبداً ولا تعرض لمعارضة شيء من الشرائع [illegible] الوقت كان سبباً لوصوله إلى حضرة ربه [illegible] من أسباب الوصول فما بقي وجه الانكار إلا على مواجيدهم وأفهامهم [illegible] لا تعارض شيئاً من صريح السنة ، والأمر [illegible] شاء فليصدقهم ويقتدي بهم كمقتدى المذاهب ، ومن شاء فليسكت ، ولا ينكر لأنهم مجتهدون في الطريق والمجتهد لا يقدح إنكاره على مجتهد آخر .

ذلك نص الخطاب في [illegible] لمن [illegible] وذلك [illegible] لدى المتصوفة إنهم قوم مجتهدون [illegible] المذاهب مجتهدون في أحكام الفروع [illegible] خلافهم [illegible] عقيدتهم [illegible] يقدح اختلافهم في [illegible]

وكذلك المتصوفة قوم اجتهدوا في أمراض النفس وأدويتها [illegible] الصوفية [illegible] النفس [illegible] وأسرارها

قوم أخذوا عقيدتهم بقوة وعزم فطوعوا [illegible] إلى القوة والعزم وأخلصوا التوجه إلى الله إخلاصاً جعلهم يتحرون الكمال [illegible] واجتهدوا في فلسفة الكمال فكونوا من [illegible] وسبلاً وطرقاً له قواعده كما له شرائطه

وان كان الرجل [illegible] الاجتماعي [illegible] العصر هو الرجل [illegible]

[illegible] لأنه [illegible] من هو
[illegible]

فكذلك الصوفي [illegible]
[illegible] من هو
[illegible]

وفي [illegible]
[illegible] رجال الفقه [illegible] في الأحكام [illegible]
[illegible] وهذا مكروه
وهذا فرض [illegible] أحكامهم [illegible]
[illegible]

[illegible] في
الطريق [illegible] واجتهدوا في [illegible] الكمال ، وهم يرون ذلك [illegible]
[illegible]
[illegible]

إن الفقهاء قد [illegible] اجتهادهم في فهمهم في كتاب الله وسنة رسوله ،
واستنبطوا أحكامهم منها [illegible]
إلى الكسب والسنة [illegible]
[illegible]
الفقه ؟ بل كان [illegible] عدداً كثيراً لأنهم [illegible] في [illegible]
الكمال في تجاريب العبودية والطاعة ، واتجهوا إلى الله سبحانه بقلوبهم
وأرواحهم وأحاسيسهم وعقولهم [illegible]

ومن يجب أن [illegible]
[illegible] الشذوذ
والتطرف [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible] أو الأمو [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] إلى [illegible]

[illegible] التصوف

[illegible] إلى [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في القلوب [illegible] التصوف [illegible]

أهوائه

[illegible] ولا

[illegible] ولا [illegible]

في تاريخ التصوف [illegible] الذين [illegible]

التصوف [illegible]

[illegible] التصوف هو كتاب الله
وهدي [illegible] التصوف
[illegible] هو [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

هذا هو [illegible] الشعراني بقوله : إن طريق القوم محررة
على الكتاب والسنة كتحرير [illegible]
من بعده [illegible]

ولقد كان [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

أجل إن التصوف صولة في صوله الحق ، وإن على الكلم الصوفي
للطلاوة هي طلاوة الأنفاس القرآنية المستمدة من الله الآتية من إلهامه ومن
ينابيع رضاه .

# التصوف المفترى عليه

[illegible] المعنى المقصود [illegible]
فى كتب [illegible] ولكنه [illegible] يعرف ولا
يكون [illegible]

و[illegible] الصوفية [illegible] فى أغراض الطب
و[illegible] والأمراض [illegible]
[illegible] وأسرار [illegible] الفقهاء فى الفروع
[illegible] التى لم [illegible] نص صريح قاطع، وكما حفظ أئمة الفقه
حدود الشريعة الإسلامية [illegible] أحكامها، [illegible] كذلك حفظ
الصوفية [illegible] وكلاهما [illegible]

[illegible] فى [illegible] كلمة التصوف و[illegible]
دس عليه وأدخل فى محرابه، كان لابد لنا من الحديث عن كبرى المسائل
التى [illegible] أن نتحدث قبلا عن
الأهواء [illegible] التاريخ الإسلامى
كافة، [illegible] الإسلام كعقيدة وفكر [illegible]
الإسلام كنظام عالمى [illegible]
[illegible]

[illegible] المؤرخون [illegible] تاريخ الإسلامى عن عمد،
[illegible]
شخصياته سواء منهم أئمة الفكر أو رجال الفقه أو قادة الحرب، أو رجال
التصوف، بل من الخلفاء الراشدين [illegible] من التزييف
والدس، بل لقد دس فى تفسير القرآن، ودس فى أحاديث الرسول ما يبرأ
منه القرآن وما يبرأ منه الرسول، ولولا أن الله [illegible] قدرته وتعالت حكمته

[illegible] الكر[illegible] [illegible] في [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] يجب أن [illegible] على الشرع الإسلامي [illegible] على [illegible] العلم [illegible]

[illegible] الإمام [illegible]

[illegible] وهم الأملاك [illegible] الأجداد جميع [illegible] من [illegible] و[illegible] ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين [illegible] آرائهم وقالوا [illegible] [illegible] جميع [illegible] [illegible] وأعناقهم [illegible] [illegible] العظام [illegible] وبذلوا أموالهم وأنفسهم وأخذوا [illegible] [illegible] ولآن قد شاع [illegible] ومنهم مقبل على [illegible] ومنهم على [illegible] ومنهم على الملاهي وقد ضيعت أعمارهم [illegible] [illegible]

ذلك ما يقوله الإمام [illegible] [illegible] في الشرع الإسلامي [illegible] من [illegible] العلم والتفلسف في صفوف المسلمين.

فإن هؤلاء [illegible] من الملاحدة وأصحاب المذاهب الفلسفية المنقرضة [illegible] جعلوا [illegible] ذات شعبتين الأولى منهما [illegible] والافتراء [illegible] في رجال الفكر والعقائد [illegible]

والشعبة الثانية [illegible] الإسلامية [illegible] [illegible] عليها [illegible] وعقائدها

[illegible] من هذا [illegible] أحمد [illegible]
[illegible] في [illegible]
في [illegible]
من [illegible] في [illegible]
[illegible]

[illegible] جعفر الصادق وأحمد بن حنبل
أما جعفر [illegible] فقه [illegible] على أنه
[illegible] في العقائد
[illegible] في [illegible] الفقه الحنبلي بن أحمد

[illegible]
[illegible] في [illegible] أحمد بن حنبل

[illegible] الإسلامية [illegible]
من مذهب [illegible]

وجاء في رسالة الإسلام (١) أن خصوم الإسلام من الأمم المختلفة
لما انهزموا [illegible] خصومات سياسية
[illegible] شتى [illegible] مرة في السياسة بإثارة الأحقاد
[illegible] وإذكاء نيران العصبية، ومرة بإفساد العلم والفكر عن
طريق الوضع والافتراء والتأويل الفاسد وإثارة الشبه والخوض فيما نهى
الله ورسوله عنه

كما عبثت هذه الخلافات وهذه السياسات بكثير من الروايات المتعلقة
[illegible] الأحاديث [illegible]
[illegible] لا يحصى من الأكاذيب. فأصبح بجوار كل آية من
كتاب الله [illegible] من [illegible] بها عن مقاصدها، وبجوار كل حديث
نبوي عشرات الأحاديث [illegible] كل عظيم

(١) [illegible] ص ٣٢٥

أو مفكر، [illegible] (١)

وهو [illegible] الإسلامي [illegible]

العجيبة التي [illegible] التصوف والمتصوفة

التصوف والمتصوفة [illegible] من الناس والأمراء أعظم وأخطر من سواهما لأن [illegible] أدركوا أن التصوف هو روح الإسلام ، وأن المتصوفة هم قوته الروحية الصحيحة ، وشيعته أو صفوته المشرقة فأرادوا أن يطفئوا هذا النور وأن يعملوا في هذا الدين [illegible]

يقول السهروردي في عوارف المعارف

«ثم إن [illegible] هم [illegible] الشرف [illegible] ووصف طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة [illegible] و [illegible] وجه الصواب في [illegible] شهادة صريح العلم لهم في معتقدهم حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم [illegible] ودخلت [illegible] من لا يعرف أصولهم [illegible] عليهم سوء الظن ، وكاد لا يسلم من [illegible] وطعن»

ويقول [illegible] الاعتقاد في أولياء الله [illegible] والوقوف مع ذلك من أكبر القواطع عن الله عز وجل قال تعالى «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

أجل من أكبر القواطع عن الله [illegible] أمر [illegible] من الصحيح في التصوف على الناس [illegible] التصوف [illegible] والبهتان

لقد دس على التصوف [illegible] من رجال التاريخ ، ودس على التصوف أهل الإلحاد وخصوم الإسلام ، وشوه التصوف رجال مغرضون [illegible] إليه [illegible] بأقوام وهو منهم [illegible] وهو [illegible]

---

(١) [illegible]

يقول الشعراني :

« والإنكار على هذه الطائفة لم يزل في كل عصر من عصور الناس والأمم ، ولعلو ذوق مقامهم على غالب العقول ، ولكونهم لكمالهم لا يعترفون كما يعترف الجن من بعضه بالوسعة »

ويقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي : « ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة بالخلق خصوصا أهل الجدال والإنكار »

ولقد خصص الشعراني فصلا طويلا في مقدمة الطبقات الكبرى تحدث فيه عن الإنكار على الصوفية ، وأن هذه الخصومات التي قامت حولهم وأحاطت بهم .

يقول الشعراني في هذه المقدمة :

« وما زال الأنبياء والأولياء يعادون ... كما ... »

ثم يضرب الأمثال بالأنبياء صلوات الله عليهم ... بالخصومات والافتراءات ونسبة ... إليهم

ثم كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، كسعد بن أبي وقاص ، الذي اتهمه أهل الكوفة أنه لا يحسن الوضوء ولا الصلاة ، وعبد الله بن الزبير اتهم بالرياء في صومه وعبادته .

ثم الفقهاء والأئمة ، فقد ضرب أحمد بن حنبل حتى تمزق جلده ونفي ورمي بالكفر تارة ، والجهل تارة أخرى ، وأبو حنيفة اتهمه خصومه من المرجئة حينا ومن المتعصبين أحيانا ، والذي اضطهده الخلفاء وعذبوه وجلدوه بالسياط وحبسوه بالكوفة ، واستخفى منهم خمسا وعشرين سنة لا يخرج خشية أو خوفا من خصومه الذين ملؤوا الدنيا حوله صياحا واتهاما ، وعاش الشافعي ما عاش في مصر والعراق ثم أفسح له التاريخ مكانا ومكانة .

ثم يقول : « وما من صوفي إلا وأصابته عصبة السوء والأفك تجريحا وتشهيرا ونفيا وافتراء ، فقد نفوا البسطامي سبع مرات من بلده بتهمة

الكفر والزندقة وأ[illegible] يقولون بعصمة [illegible] على تحريم
الكفر والإلحاد [illegible] في [illegible] حياته [illegible]
السحر [illegible] و[illegible] [illegible] على [illegible] في
الفتوحات [illegible] من [illegible] المصرية [illegible] الشيخ
محيي الدين [illegible] الأولياء [illegible] [illegible] كتبه
من [illegible] عليه [illegible] عقائده وتكفيره [illegible]
الرجل [illegible] في [illegible] لا [illegible] في [illegible] ما يجدونه في
كتبه من المدسوس».

ثم يقول:

«ولقد [illegible] في [illegible] على [illegible] [illegible]
وصاحب [illegible] ثم يقول أيضاً [illegible] من أحد في [illegible]
[illegible] رأى فيه أشياء كثيرة لا تتفق مع معتقد أهل السنة والجماعة فحذفها
وتوقف فيها [illegible] كذلك [illegible] الشيخ شمس الدين محمد [illegible] فذاكره
في ذلك فأخرج له نسخة [illegible] على نسخة [illegible] بخط
الشيخ محيي الدين [illegible] في [illegible] شيئاً [illegible] توقف فيه وحذفه».

ثم يقول: [illegible] أن [illegible] في مصر الآن كلها كتبت من النسخة
التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما وقع ذلك
أيضاً في كتاب الفصوص وغيره من كتب [illegible]».

ولا عجب [illegible] الشعر [illegible] فكتب التفسير تموج بالإسرائيليات
الكاذبة التي تفسر [illegible] مثلاً [illegible]

وكتب الأحاديث تزخر بأمواج من الأحاديث الموضوعة والتي نسبها
المزورون إلى أفضل خلق الله وأصدقهم!؟

بل إن [illegible] الأدب العربي لا [illegible]
حتى أن [illegible] الأدب المعاصرين [illegible] في الشعر [illegible] كافة

فشوه [illegible] خصومه [illegible] ولكن الدعاة
إلى الله تعالى [illegible] صابرين على [illegible] مستمرين [illegible]
[illegible] الله وسلامه عليهم [illegible] وقد [illegible] الناس فريقا
[illegible] وفريقا [illegible] .

والشعراني [illegible] مختصر [illegible] مصنوف من
[illegible] عليه [illegible]

[illegible] الشعراني [illegible] أنواع [illegible] لا [illegible]
[illegible] واحتقار [illegible] من حين كنت صغيرا
حتى أن بعض الله أوقف في بعض الأوقات عن العمل ببعض ما استحسنه
بعض الناس حتى يظهر وجه موافقة للكتاب والسنة .

ثم يقول : [illegible] من أشنع على من [illegible] الي استطيع
في [illegible] عن ظاهر الكتاب والسنة مع أن أحدا من
هؤلاء [illegible] لم يجتمع بي قط ، ولا يثبت عنده ذلك ببينة عادلة ، وإنما
[illegible] الشيطان ذلك له حتى أن نجد مطعنا في أعراض العلماء
[illegible] على بعض الكلمات ونحوها .

ولم يكتفوا مع الشعراني بهذا ، بل وضعوا مقدمة لكتابه كشف الغمة
وشرحوها مع الكتاب في حياته واستعاروا نسخة من كتابه البحر المورود
ودسوا فيه كلمات عديدة [illegible] عام الإسلامي [illegible]
فتنة في الأزهر عليه ولبث الريب فيها ثلاث سنوات حتى تمكن
الشعراني من إثبات كذب خصومه وتضليلهم .

[illegible] الشعراني [illegible] صحيح [illegible] في
موضعه من هذا الكتاب .

[illegible] ؟ وذلك الذي كان [illegible] الكبير [illegible] على التصوف

والمتصوفة وهذا الدين و [illegible] في التصوف علما
ونورا من عقائد ثبتت في أساس الدين و [illegible]

وفي ضمنه هذا المذهب [illegible] وحدة الوجود
الوثنية وما يتبعها من اتحاد وحلول و [illegible] في الكل كما يدعون

كما شهد في هذا المذهب شطحات الفلسفة المضللة التي جعلوا عليها
أبوابا وراءها [illegible] كدعوى الحقيقة المحمدية التي جعلوها [illegible] الوجود
وأصله وسره (١) وما أطلقوا عليه كلمة [illegible] وجعلوها مراتب تتنزل من
الشريعة قولا وعملا وما ابتدعوا من [illegible] وأسموه ورعا وزهدا
وما حببوا من مذهب باطنية منحرفة عن كتاب الله وسنة رسوله ونادوا
بأنها الحق وأنها السر وأنها الشيء المقصود المراد [illegible]

وكل هذا وذاك يبرأ منه التصوف، ويبرأ منه المتصوفة بل هم أشد
الناس إنكارا له وحربا عليه لأنهم أقوى الناس إيمانا وأبصر الناس بهدى
كتابهم وسنة رسولهم

إنهم المتصوفون [illegible] الذين جعلوا [illegible] فعاشوا في
خطاهم في صلاة [illegible] الذي لا يعرف [illegible]
من [illegible] التقرب إلى ربه مقبل
بوجهه على خالقه، فكل صغيرة مهما دقت في نظرهم كبيرة في كل حصة
تلبيهم [illegible]، لأنهم أولو عزم وأصحاب العزمات هم [illegible]
ونماء في إيمانهم، كما هو في [illegible] كما هو في أعلى كلمة دينهم ورسالة نبيهم

(١) [illegible]
[illegible]

# التصوف بريء من وحدة الوجود

وحدة الوجود وفكرة الاتحاد والحلول، فكرة الحادية قديمة، عرفتها في العبادات الهندية والديانات [illegible] وخلاصتها التي تقربها إلى العقول [illegible] أن أصحابها انقسموا إلى فريقين، فريق يرى أن الله سبحانه وتعالى [illegible] [illegible] ومن [illegible] ارتفع [illegible] [illegible] السعادة الكبرى وظفر بالخلود [illegible]

والفريق الثاني يرى أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شيء في زعمهم هو الله، والله هو كل شيء، يتجلى تجليا حقيقيا في كل شيء في الكون بذاته، فلا موجود إلا الوجود الواحد، ومع ذلك يتعدد بتعدد الصور تعددا حقيقيا واقعيا في نفس الأمر ولكن ذلك التعدد لا يوجب تعددا في ذات الوجود، كما أن تعدد أفراد الإنسان لا يوجب تعددا في حقيقة الإنسان، أو تعدد صور الإنسان الواحد في المرايا المجاورة لا تحتم تعدده.

تلك هي فكرتهم في وحدة الوجود، وهي سفسطة لا يقبلها عقل ولا نقل ولا شرع، سفسطة تذهب بالشرائع كافة والأديان جميعا، وتنال من الخلاق والكمال الواجب لله سبحانه وتعالى، وتنقض الجزاء والعقاب والجنة والنار، والحياة الأخروية، كما تنقض الحدود بين الخالق والمخلوق فتجعل الخلق والخالق شيئا واحدا.

وهذا الإفك الأكبر وهذا الغلو الإلحادي الفاجر هو الذي قذف به خصوم التصوف المتصوفة وهم منهم براء، وكلا وألف لا وحاشا، [illegible] به وتقديسا لفاطر السموات والأرضين.

فلو درس خصوم التصوف هذه الأبحاث متجردين من حبهم وبغضهم لكفوا عنه ومقصدنا هنا لا يهم ولكن يهمنا ألا يغيب عن التصوف رجال الاستشراق الذين خلطوا بين حقيقة الإسلام في ثوب المدعى عنه

لقد قسم المستشرقون وتبعهم المقلدون من أعداء التصوف في الإسلام فقالوا إن التصوف نشأة هندية ووثنية فقط وإن وحدة الوجود وفكرة الحلول والاتحاد مقتبسة من الصوفية البوذية ونظريات من فلسفة مدرسة الإشراقية

ونسوا أو تناسوا أن التصوف الإسلامي قائم على كتاب الله وسنة رسوله وهديه وإن الصوفي متى قرأ في كتاب الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير تقرأ [illegible] صفات اللاهوت في سائر الملل والنحل وطوى تحت هذا الإبطال جميع كل فلسفة تشذ في بحث الذات والصفات والخلق والخالق .

يقول الشعراني في اليواقيت والجواهر إن علماء الأولياء لم يجوزوا أن يجعلوا أنفسهم عين الله بل عدوا أنفسهم عبيداً لا يقربون من الله تعالى وكما حكى بعض الأولياء أنه ينبغي أن يسموا الاتحاد تحقق [illegible] في حقهم رضوان الله عليهم

ويقول الإمام محيي الدين بن عربي في عقيدته الوسطى : اعلم أن الله سبحانه واحد بالإجماع ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل هو في شيء أو يتحد بشيء

ويقول في باب الأسرار من الفتوحات : لا يجوز للعارف أن يقول أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب . وحاشا للعارف من هذا [illegible]

ويقول أيضاً في لوائح الأنوار : من كان العرفان شهود عبد ورب ، وكل عارف بقي شهود العبد في وقت ما فليس بعارف ، وإنما هو في ذلك الوقت صاحب حال ، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده .

ويقول في الفتوحات: القائل بالحلول [illegible] من أهل الحلول مرض لا يزول، ومن قال بالاتحاد فما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول، ومن قال به معلول.

ويقول في ... لا ... أنت وهو هو ... تقول كما قال العاشق: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، فهل قدر أحد أن يرد العين واحدة؟ لا والله، والجهل لا يصحح حقا.

وقال أيضا في ... يقول: أنا هو ... لا يحيط به كما أحاط تعالى بنفسه.

ثم يقول: لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى، لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلها وصار الحق خلقا؟ والخلق حقا؟ وما وثق أحد بعلم وصار المحال واجبا، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدا.

ويقول الجنيد شيخ الطريقة في الرد على الفجرة القائلين بوحدة الوجود: إن هذا كلام من يقول بالإباحة والمرقة، والزنا عندنا أهون حالا ممن يقول بهذه المقالة.

ويسأل العارف الرباني الإمام سهل بن عبد الله التستري عن ذات الله عز وجل فقال: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول، وتراه العيون في العقبى ظاهرا في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

ويقول أيضا مخاطبا المغرور المشرك [illegible] الإنسان: يا مسكين، كان الله ولم تكن، ويكون الله ولا تكون، فلما كونك اليوم صرت تقول أنا وأنا، كن الآن كما كنت قبل تكوينك، واعرف نفسك وحقارتها، ورجوعها من تناهي الذلة والاحتقار.

وتقول [illegible] في [illegible]

[illegible] وجه [illegible] عن هذا الوجه

[illegible] والمقارب واحدة [illegible]

ولا [illegible] من حسن

[illegible]

[illegible]

هذا [illegible] كان هو [illegible]

[illegible]

وقد حكى [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] القوم [illegible]

عن الله تعالى [illegible]

## [illegible] الأحوال

[illegible] التصوف [illegible] الوجود [illegible] الإسلامية [illegible] على [illegible] الإسلامية [illegible] تلك القولة المعروفة والتي [illegible] منه وتغير أحوالهم (١)

ولكن أين [illegible] ومن أين [illegible] المتصوفة [illegible]؟

لقد [illegible] الأكبر [illegible] وهو [illegible] أو مقام [illegible]

فالتصوف قوامه الذكر [illegible] والشعر [illegible] وما يلهم [illegible] ومعارج ونفحات [illegible] الدائم في صفاء القلب، و[illegible] الروح والإشراقات [illegible]

وأول مقامات التصوف [illegible] مقامات المؤمن [illegible]

---

(١) من أراد التوسع في دراسة جوانب التصوف الإسلامي [illegible] فليرجع ذلك في كتابنا عن [illegible]

دون أن يعبد الله كأنه يراه . قال : فعند ذلك [illegible] وحقق جلاله عن ظن أنه يرى سواه حق جلاله .

يقول الشعراني :

ومراد القوم بقولهم : لا موجود إلا الله [illegible] فذلك من مقام [illegible] لأنه من شهد نفسه في الطريق [illegible] عن محبة [illegible] الله تعالى [illegible] محجوباً عن شهوده لا كون [illegible] لصاحب [illegible] أو تلف [illegible] فإنه من شهد [illegible] ولا [illegible] [illegible] على [illegible] فلاناً قال لا فإذا قيل له فقد كان [illegible] قال [illegible] .

ثم يقول : وليس مراد المهتدي في الطريق أن سوى وجود العالم كله كما ظن من لا علم له [illegible] الطريق [illegible] مراده أن الله تعالى قد أخذ [illegible] عنهم [illegible] من شهود خلقه .

وقد كان [illegible] على [illegible] عليه [illegible] على [illegible] حتى قطعت [illegible] ولم يشعرون بألم القطع فكيف [illegible] من تعلق قلبه [illegible] من [illegible] .

وقد روى القشيري عن الشبلي أنه كان يرود في بداية أمره شيخه الحصري كل يوم جمعة فقال له [illegible] بكر إن خطر في بالك غير الله تعالى من الجمعة إلى الجمعة فلا [illegible] فإنه لا [illegible] .

ذلك هو أدب الطريق الصوفي الذي [illegible] الشيوخ [illegible] [illegible] الوجود عن قلوبهم بل عن [illegible] [illegible] كل جوارحهم بذكر الله وحب الله وجلال الله .

[illegible] علينا [illegible] المؤمنون الصادقون ، ولا شأن لها [illegible] [illegible] في هذا القول غير وحدة الوجود ، أو الاتحاد والحلول .

[illegible] المنصرفة عما [illegible] [illegible] وجه [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حجبهم
[illegible] [illegible] [illegible] في الكون [illegible] [illegible] وحدانية [illegible]
[illegible] الكون [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]

يقول الشعراني [illegible] [illegible] [illegible] الأسماء [illegible] فكيف
[illegible] [illegible] [illegible] الأمور [illegible] [illegible]
ما ألفوه قال: "لا شهود للباري سوى [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] مؤثر [illegible] [illegible] [illegible] لأحد وساطة أو
أثرا في عين ما فلا تلتفت إلى [illegible]

والمعنى هنا أن لا شهود غير الله أصلا من جميع الأكوان [illegible]
لا [illegible] [illegible] وذلك معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه: أصدق كلمة
قالها شاعر كلمة لبيد

« ألا كل شيء ما خلا الله باطل »

أي كل ما [illegible] من [illegible] [illegible] فهو [illegible] لا [illegible] [illegible] الله
أسماء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ذلك [illegible] [illegible] أو [illegible] [illegible] حجاب [illegible] [illegible]
الطريق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فوق
ذلك المعنى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الله [illegible] [illegible] السكون
أيضا. وذلك كما يقول محيي الدين [illegible] أول [illegible]

يقول الشيخ الطوسي في [illegible] غلط جماعة من الصالحين في قولهم
أنهم [illegible] عن أوصافهم [illegible] في أوصاف الحق [illegible] [illegible]
بجهلهم [illegible] [illegible] يؤدي [illegible] الحلول أو [illegible] النصارى في المسيح
عليه السلام

فإن وجد في كلام الصوفية [illegible] معصوبة بمعنى الفناء في الله جل شأنه ،
فالمعنى الصحيح المقصود من ذلك [illegible] إرادة للعبد وهي من عند الله عطية
ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول في أوصاف الحق [illegible] خروجه من
إرادته ودخوله في إرادة [illegible] في التوحيد

[illegible] في المعنى [illegible] حقيقة [illegible] حتى [illegible]
[illegible] أوصاف [illegible] الحق [illegible] لأن لله معنى لا يحل في
القلوب [illegible] القلوب [illegible] والتعظيم [illegible]

ثم [illegible] في [illegible] أنها متحدة [illegible] في
أفعاله لا بذاته

[illegible] العبد في [illegible]
لا [illegible] وجود العبد في وجود [illegible]

ذلك هو الفيصل بين الصوفية وخصومهم ، فالفناء الصوفي هو فناء
معنوي ، لا فناء مادي كما زعم المتوهمون

يقول القشيري [illegible] الفناء [illegible]
[illegible] الخلق
[illegible] بالحق

ثم [illegible] عن نفسه وعن [illegible] نفسه
وبهم ، فإنه فني عن الأفعال والأخلاق والأحوال فلا يجوز أن يكون
ما فني عنه من ذلك موجوداً [illegible] عن نفسه وعن الخلق فنفسه
موجودة والخلق موجودون ، ولكنه لا علم له بهم ولا به ، وقد ترى الرجل
يدخل على ذي سلطان فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه هيبة حتى إذا سئل
بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه لم يمكنه الإخبار بشيء ،

هو فناء أخلاق وصفات [illegible] لا فناء [illegible] فناء الصوفية في أنوار
الجلال لا في عناصره

[illegible] الفرح الصوفي وهو [illegible]

[illegible] الصوفي [illegible]

[illegible] لا [illegible] في شيء من [illegible] إلى [illegible]

الله [illegible]

[illegible]

[illegible]

ومن [illegible] عز

وجل وجلاله وعظمته ونعمه وقدرته [illegible]

[illegible] فهو [illegible] محبوب

[illegible] المحبة من حيث كان [illegible]

[illegible] ذكر

[illegible]

[illegible] وهو

هنا يكون [illegible] كله

[illegible] الصوفي [illegible]

تلك الكلمة [illegible]

الأ [illegible]

وهذا الشعور الكامل بالحب الإلهي والإحساس الصادق بحب [illegible]

يزداد حتى يبلغ حده الأعلى فيذهب عن المحب وعيه بل تكاد تذهب عنه

نشربه ليعود جوهراً أو كجوهر وهي الحالة التي يعبرون عنها بالذوق والشرب والفناء ويجمع ذلك كله اسم الوجد

وبعد حصول هذه [illegible] في حالة [illegible] [illegible] فتصبح الشوق هنا في حالة قوة [illegible] [illegible]

وهذه هي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وهذا موقف لا يجاب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

## مقام الفناء

### وابن تيمية

ومن عجب أن مقام الفناء الذي يتم فيه الشعور بوحدة الوجود أو بالاتحاد والحلول [illegible] مقام من مقامات التوحيد الإسلامي، بل هو المقام الذي ترتكز عليه [illegible] حتى ابن تيمية وهو خصم التصوف [illegible] خصص له شرحًا في كتبه [illegible] من مواقف المفكر [illegible]

يقول الإمام ابن تيمية في كتابه العبودية [1] متحدثًا عن مقام الفناء في وحدة الإرادة

« والفناء عن إرادة ما سوى الله بحيث لا يحب إلا الله ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب من غيره وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي يزيد حيث قال : أريد أن لا أريد إلا ما يريد أي المحبوب المرضي، وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه وهذا معنى قولهم في قوله تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ قالوا هو السليم مما سوى الله أو مما سوى عبادة الله أو مما سوى إرادة الله أو محبة سوى محبة الله فالمعنى واحد وهذا المعنى إن سمي فناء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره وباطن الدين وظاهره ».

ثم يتحدث ابن تيمية عن المقام الثاني في مقامات الفناء فيقول :

« وأما النوع الثاني فهو الفناء عن شهود السوى، وهو يحصل لكثير من السالكين فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته

---

(1) ص ٩٦

وبحيث ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد لا يخطر بقلوبهم غير الله بل ولا يشعرون كما قيل في قوله تعالى «وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها» قالوا فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى، وهذا كثيرا ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور إما حب وإما خوف وإما رجاء يبقى قلبه منصرفا عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره. فإذا قوي على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن، وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها، وإذا قوي هذا ضعف المحب حتى يضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه كما يذكر أن رجلا ألقى نفسه في اليم فألقى محبه نفسه خلفه فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي؟ قال: غبت بك عني فظننت أنك أني)

أليست تلك المقدمات من خلال الفناء هي مقدمات فكرة المتصوفة بوحدة الوجود

يقول ابن تيمية عن أهل التصوف الأكابر (فإنهم غرقت قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته وبحيث ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد)

وهل قال المتصوفة أكثر من هذا القول ومن ثم فإن ابن تيمية يهاجم التصوف والمتصوفة لأنهم يقولون إنهم في شهودهم الكبرى لا يرون إلا الله ويغيبون عما سواه أي عين ما يقوله ابن تيمية

إنهم ليرون الله في كل شيء ومع ذلك يوقنون بأنه سبحانه فوق كل شيء وهذا أكمل درجات التوحيد

ويقول ابن تيمية أيضاً في مجموعة رسائله[1]: وأما قول الشاعر في شعره

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي كاتحاد أحد المحبين بالآخر، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثل ما يقول ويفعل مثل ما يفعل، وهذا تشابه وتماثل لا اتحاد العين بالعين، إذا كان قد استغرق في محبوبه حتى فني به عن رؤية نفسه، كقول الآخر:

غبت بك عني فظننت أنك أني

فهذه موافقة في المعنى ...

ويقول ابن تيمية أيضاً في رسائله: روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي عن ربه تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، ... فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ... شيئاً ...

ويذكر أيضاً ابن تيمية حديثاً رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي: يقول الله تعالى: عبدي مرضت فلم تعدني، فيقول: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلو عدته لوجدتني عنده؟ عبدي جعت فلم تطعمني، فيقول: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي.

ولم أجد رأياً في حلول متصوف ... في مقام ... وسائر ... إلى القول بوحدة الوجود. ويذكر ... واحد ... أعم من هذا التفصيل ... لمقامات ... ابن تيمية ... التصوف الأكبر.

---

(١) ص ٥٢

والذي في المتصوفة من حديث الوجود وقولهم بالاتحاد والحلول مستمد وجهه من كلام بوذا [illegible] ونحوه

ولم أجد شاهداً أكبر دلالة على التشبه بهم من الفرس أنكروه وأصبح بوذا أموراً في ذاته أي قالوا إنه سيد مرسى

وغلت المتصوفة لشدة حبهم لربهم فأصبح فارغاً مما سوى الله جل جلاله وربنا سبحانه أكبر وأعظم من أن يشبه بشيء من عباده أو برسول من رسله

ويقل بعد ذلك المغرضون ما شاؤوا ..

# جهاد الشعراني

## الاتجاهات الفلسفية والتصوف

لقد حمل الشعراني على الفلسفة حملة عنيفة ملاحقة، ولا نظن أن صوته سواء، بل لا نعتقد أن عالما من مفكري الإسلاميين حمل مثله أو قام بشبيه لها.

إن الرسالة التي اختارها هي التوفيق بين شتى الآراء والمذاهب والأفكار الإسلامية، والتقريب بينها جعلت من التصوف وسطا للإخلاء والترفع عن ساحتها، وباتخاذه منه موقفا وسطا عدد كاملا من المسلمين.

عمل الشعراني على التوفيق بين الفقه والتصوف، أو بين الشريعة والحقيقة كما فعل في ... طلاح، وخصص لذلك الجانب الأكبر من دراساته وكتبه.

كما جاهد للتوفيق بين التصوف وبين رجال الكلام والتوحيد وأصحاب النظر العقلي من الفلاسفة والمتكلمين، يقول الشعراني في كتابه الميزان: وحاولت المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طاقتي ولم يسبقني إلى ذلك أحد.

وبذلك اتفق الشعراني مع الغزالي في ناحية، واختلف معه في الناحية الأخرى؛ فقد سعى الغزالي جاهدا من قبله للتوفيق بين الفقه والتصوف، ولكنه في الناحية الأخرى حارب الفلسفة بعنف وقسوة، ولم يهادنها ولم يقبل منها شيئا، ولم يرض لها حجة.

وهذا الموقف الذي اتخذه الشعراني شعارا له، صعد مكرهه لمحاربة والصراع في كافة الميادين الفكرية والساحات الدينية.

فقد حارب الشعراني وجوانب من أدعياء التصوف، من المجاذيب والبهلوانيين والدراويش، وكانوا أصحاب جاه والسطوة في عهده.

كما حارب وحورب [illegible] من الشعراء [illegible] على [illegible]
أعرفت [illegible] [illegible] [illegible] وعشت بكل عرب [illegible] .
وحارب وحورب من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] الإنسان [illegible] الإنسان [illegible] [illegible] هو
ما [illegible] الإلهية [illegible] من قيود [illegible] ..

كما حارب الشعراء أيضاً [illegible] من رجال التصوف [illegible] مبارزة
قاسية [illegible] [illegible] [illegible] وهو [illegible] الأكبر والشيخ
الأمين [illegible] [illegible] رجال [illegible] الإسلام [illegible]
جيرة من [illegible] المتصوفين [illegible] [illegible] [illegible]
الشعراء [illegible] أكثر من [illegible] الأخلاق [illegible] للمسلمين من
المتصوفة [illegible] كان يهدف إلى [illegible] [illegible] في [illegible] من
صولة الآراء الصوفية ، وهي صولة لا يعرفها إلا من [illegible] وهي
صولة أكبر من أن [illegible] [illegible] القلوب جامدة

وعصر الشعراني كان لا يتصل [illegible] الصولة القوية للآراء الصوفية [illegible]
عصر الشعراني [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الاحترام [illegible]
[illegible] الكتب [illegible] على كتب التصوف [illegible] [illegible] [illegible]
التي عمل أكثر من [illegible] [illegible] أكثر من [illegible]

يقول الشعراني [illegible] الأعراف [illegible] [illegible] الخاص [illegible]
العارفين [illegible] [illegible] طريق القوم [illegible] [illegible] هذا
من [illegible] الرجال [illegible] مطالعة [illegible] [illegible] عليه من [illegible]
الشبه التي لا يكاد المطلع [illegible] يخرج منها [illegible] على غير القصد

ثم يقول

« [illegible] من شأن [illegible] كثرة [illegible] [illegible] [illegible] وقد
وضع بعض العلماء من [illegible] [illegible] جمع فيه كثيراً من [illegible] ذلك [illegible]

بـ العوام فيقعون في الكفر [illegible] من النص [illegible] حالة من الكسب
وقد حسب [illegible] إلى أن [illegible] يصحب الحق [illegible] والنظر فيه
لأهل وبالله التوفيق

[illegible] يقع فيه كثير من [illegible] [illegible] وقوعهم
[illegible] كل [illegible] الفقه [illegible] [illegible] من [illegible] للملائكة
ونحو ذلك لا يجوز [illegible] من [illegible] عند العوام [illegible] تعالى
مكانا خاصا ، وإن قال [illegible] أمر [illegible] [illegible] عدم [illegible]
له في [illegible] [illegible] القول [illegible] في [illegible] حطا
وقد أجمع أهل السنة على منع كل إطلاق لم [illegible] به شريعة سواء كان في
حق الله تعالى أو في حق أنبيائه أو في حق دينه ، وكان الشيخ [illegible]
الأشعري يقول [illegible] شرع [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأئمة ، [illegible]
[illegible] أو [illegible] على منع كل [illegible]
في حق الله تعالى [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ذلك [illegible] شيء

[illegible] أجمع [illegible] على وجوب [illegible] أحاديث [illegible] كحديث
[illegible] في سماء الدنيا [illegible] أحد [illegible] وكان على [illegible]
[illegible] درجا منه وقال للناس [illegible] إلى سماء الدنيا [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] جبل [illegible] جبل

[illegible] يمنع شرعا [illegible] [illegible] الله تعالى [illegible] والماو [illegible]
[illegible] وصاحب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
والمكر الأكبر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] تعالى
[illegible]

نار أهون ومن قوم [illegible] حتى [illegible] [illegible] [illegible]

وقول بعضهم

[illegible] [illegible] وبعضى [illegible] [illegible] ورجه رسمى

فكل هذا وأمثاله لايجوز عند أهل السنة والجماعة [illegible] [illegible]
علماً خواص عن الكرامات التي [illegible] [illegible] من [illegible] أنه تعالى
قال لا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يعلم الدهر [illegible] حق الحق
[illegible] عند سماعه إلى الحضور مع الحق

قال الأمر أولياء الله تعالى عرف [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام ويجوز على الله تعالى عن أن يحصره عقلا لتعزلاتهم
فلذلك ضربوا الأمثال بحيث وحيرتك من قيس وليلى ونحو ذلك

وكذلك [illegible] [illegible] قول بعضهم — ما في الوجود إلا الله —
وقولهم [illegible] في ثوب العاشقين — [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ما في
الوجود [illegible] [illegible] لأنه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الإشارة
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من غير إحاطة
وكذلك مما يجب اجتنابه قولهم — [illegible] [illegible] — لأن [illegible] هو
الدهر، والدهر هو الله، وكذلك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] لأنه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
لأنه يوهم قدم العالم، وهذا كفر

ومما يجب اجتنابه قولهم [illegible] قديم الزمان — لأن الرب لا يتقيد
بالزمان فهو كلام باطل، وكذلك قول بعضهم [illegible] [illegible] [illegible] —
لا [illegible] في وجود الشر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
وكذلك قولهم فلان [illegible] على [illegible] لأنه يوهم [illegible] ولكن الأدب
أن يقال فلان له فراسة صادقة أو كشف أو اطلاع [illegible] لئلا يراحم

وليس في مقام النص والقطع فإنه نص لا ريب. ولا عبرة بمن قال إن القطع الذي هو في اصطلاحهم عبارة عن الاعتقاد الصحيح الجازم المطابق للواقع مقتض وهذا النص هو المحكم المسمى به فافهم وتنبه وكيف

وكذلك مما يجتنب قوله مثل قولهم – جعلك الله [illegible] وقالت ذلك إذا اشتعل في البيع أو الإقالة لأنه من مذهب أهل الاتحاد. وذلك كفر

عن الإمام العلامة عمر بن محمد النسفي في كتابه المسمى من العوام. ويحذر من بعض مواضع من كتب الشيخ محيي الدين العربي ومن كتاب الشيخ والنسوبة له وغير ذلك من كتب القوم مما أن يدسوه عليه أو وضعها في أوائل أمره ثم رجع عنها كما ذكر في كتابه [illegible] الضلال — .

وكذلك يحذر من مواضع في كتاب (القوت) لأبي طالب المكي نحو قوله [illegible] الله تعالى [illegible] — ومن مواضع في تفسير (مكي) ومن مواضع كثيرة في كلام أبي سعيد الواحدي.

ويعدد الشعراني كتب كثيرة ثم يقول

«وليحذر أيضا من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه، لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ لا سيما الفصوص والفتوحات المكية فقد أخبرني الشيخ أبو طاهر عن شيخه عن الشيخ بدر الدين [illegible] أنه كان يقول جميع ما في كتب الشيخ محيي الدين من الأمور المخالفة لكلام العلماء مدسوس عليه وكذلك كان يقول الشيخ مجد الدين صاحب القاموس»[1]

ويوالي الشعراني حملته الكبرى فيقول

«وليحذر أيضا من مطالعة كتب عبد الحق بن سبعين وأبي يوم الحلوي

(١) اللمن جزء أول ص ٢٤٥

والأخلاق والتشبه وأقوال [illegible] مع [illegible] [illegible] كلام [illegible]
عن ابن الفارض في [illegible] [illegible] على [illegible] مع [illegible]

ويختم الشعراني [illegible] [illegible] الصدقة التي [illegible] في [illegible]
القوم [illegible] من صوفية التصوف والمتصوفة [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الشرع
وعلمت عقائده [illegible] الشريعة من حديث وتفسير وفقه والأصول [illegible]
من الصحابة والتابعين وتابع التابعين ومتقدميهم من الفقهاء والمتكلمين
وبذلك [illegible] لاجتماع هؤلاء [illegible] [illegible] وطريقة القوم

والشعراني وهو [illegible] التصوف في [illegible] [illegible] على [illegible]
[illegible] على [illegible] [illegible] التصوف [illegible]
يكشف اللثام عن حقائق العلم الصوفي [illegible] الذي [illegible] على وجه
[illegible] [illegible] اصطلاح [illegible] على [illegible] [illegible]
القوم ومقاصدهم

و[illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] التصوف و[illegible]
كتاب [illegible] اصطلاحات [illegible] [illegible] على مقاصدهم
وأحوالهم

ومن هذا القبيل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في
[illegible] [illegible] [illegible]
والتكلم [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] الله في
[illegible]

يقول الشعراني [illegible] العالم كله [illegible] [illegible] [illegible]
جميع الممكنات [illegible] الله على صورة ما كانت [illegible] [illegible] [illegible]
القديم لا يقبل الزيادة، وفي القرآن الكريم [illegible] أعطى كل شيء خلقه
ثم هدى

والواقع [illegible] شيخه الأكبر [illegible] [illegible] من قوله في الفتوحات وغيرها [illegible] [illegible] أو [illegible] على [illegible] [illegible] على نفسه [illegible]

يقول الشعراني [illegible] الأكابر [illegible] عليهم الصلاة والسلام [illegible] أن الله تعالى [illegible] حتى [illegible] ذلك [illegible] بعض أحوال [illegible] قوله صلى الله عليه وسلم إن يكن في أمتي محدثون فعمر

ثم يقول الشعراني: وما نقل عن القوم من قولهم اللوح المحفوظ هو قلب العارف ليس مرادهم به اللوح المحفوظ وإنما مرادهم أن قلب العارف إذا انجلى ارتسم فيه كل ما كتب في اللوح المحفوظ نظير المرآة إذا قابلها لوح مكتوب.

وقولهم أيضاً دخلت حضرة الله وخرجنا عن حضرة الله ليس مرادهم بحضرة الله عز وجل مكاناً خاصاً معيناً في ذلك [illegible] التحيز للحق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. إنما مرادهم بالحضرة حيث أطلقوها شهود أحدهم أنه بين يدي الله عز وجل، فما دام شهوده أنه بين يدي الله عز وجل فهو في حضرته، فإذا حجب خرج عن حضرة تعالى. والشعراني في هذا الباب إسهاب وتفصيل لم [illegible].

وبذلك يصف الشعراني التصوف الصادق [illegible] الصادق [illegible] حقيقة يهجم به على كل من شطح أو [illegible] كله ما يخدش الإيمان أو يتنافى مع حقائق الإحسان.

وكان الشعراني في موقفه كعهده أبداً على جادة الوسطية والصراط المستقيم، والطريقة الوسطى

# بين الشعراني وأدباء التصوف

## أدب التصوف في عصره

حفظت مصر خلال التاريخ حضارة صوفية تدل بوضوح على عبقريتها وعمق آثارها في العصر منذ فجر التاريخ أمة متفكرة ، وأمة عابدة فهي أول أمة اهتدت إلى التوحيد وعرفت الله جل جلاله على نحو ما ، وهي أول أمة نشدت الخلود والروحانية ، وأول ما عرفت الإنسانية من مذاهب وعقائد كل عقيدة

وفي مصر نبتت وعاشت وازدهرت اليهودية والمسيحية والإسلامية وفي مصر عاش موسى وعيسى ويوسف ، وغيرهم من الأنبياء الذين قص الله سبحانه قصصهم في كتابه وغيرهم ممن لم يقصص

فالتاريخ الروحي لمصر ... هو جزء من تاريخ الإنسانية ... وهو سر هذا التاريخ الذي أمدها بالخلود والقوة ، ولقد تعاقبت على مصر عهود الحروب ، فما فقدت روحها أو تخلت عن شخصيتها العريقة الكريمة

ثم جاء على مصر العصر ... فجعل أمرها إلى أرقاء وما هم إلا دراهم من ... حتى أصبحوا سلاطين مصر وحكامها وأصبح عرش مصر ... وسائل ... وضروب ...

وأسس المماليك في مصر قوة حربية من أعظم القوى التي عرفها العالم الإسلامي ، بل من أعظم القوى في تاريخ العسكرية العالمية .

ولكن شعلة العلم ، والمصابيح الإلهية التي كانت تضيء لمصر ، وتضيء من مصر للعالم أخذ نورها يخبو في عهد المماليك بل أخذ نورها يخبو ويتبدد ، وتعقبته الظلمات ، فما كان المماليك يوما من الأيام رجال فكر

أو علم ، وما كان لهم طاقة على العمل الفكرى ، وما كان تصورهم عن الدين إلا تصورات جاهلة [illegible] ، انحصرت فى [illegible] وجدها فى [illegible] التعصب [illegible] الأحمق للإسلام دون فهم له ، أو استكره [illegible] وسعه .

وامتد حكم المماليك وطغيانهم ، [illegible] التعصب [illegible] على الحكم [illegible] وعاشت مصر [illegible] لأقسى أنواع النهب و[illegible] ، [illegible] ، حصانة [illegible] أو عرض أو [illegible] . [illegible] الأهواء [illegible] التعصب [illegible] .

وانعزلت مصر عن العالم وأوربا [illegible] الحضارات [illegible] وبعدت مصر عن [illegible] الإسلامى [illegible] الخرافة والأسطورة [illegible] عصر [illegible] دولة الأولياء [illegible] ، وهو العصر [illegible] فى بعض مواكب رجال الطرق الصوفية التى [illegible] مصر [illegible] وأعلامها الممزقة ، وأعدادها الأسطورية البالية .

العصر الذى لا [illegible] فى تلك [illegible] التى [illegible] الأولياء فى القاهرة وعواصم [illegible] ، [illegible] أصحابها [illegible] والمجاذيب [illegible] وكاشفى [illegible] ، وصاحبى [illegible] !!؟؟

ومن عجب أن الدين الإسلامى ، وهو الذى بعث العرب الأميين من صحاريهم ، ليكونوا هداة عالميين فى ساحات العلم والحضارة وما إلى العلم والحضارة ، وقوادا فاتحين فى ميادين الحرب وجهودهم فى الحرب والجهاد ، قد تحول فى مصر فى أواخر عهد [illegible] إلى مجموعة ضخمة هائلة من البدع والخرافات والأساطير [illegible] إلى مجموعة ضخمة [illegible] من [illegible] والأيام [illegible] الإسلام والغريب على الآداب والشعوذة السمجة [illegible] .

وتستر الدجالون والمشعوذون والمحتالون وراء التصوف [illegible]
[illegible] وهبط هذا التصوف إلى الخرافة [illegible]
[illegible] الأولى وشكت الأعراض وحدث
[illegible]

وبعد أن كانت [illegible] التصوف في عصور الارتفاع العلمي [illegible]
[illegible] التي [illegible] إلى [illegible] من [illegible]
[illegible] التصوف [illegible] من الأخلاق
المتمسكة على الشهوات [illegible]

حتى [illegible] على [illegible] وعطف في [illegible]
[illegible] التصوف [illegible]
[illegible] (١)

ومن [illegible] على طريقة [illegible]
[illegible] التصديق [illegible]
[illegible] (٢)

ثم [illegible] على ذلك [illegible] من [illegible]
[illegible] فلان وفلان.

ويعقب الشعراني على ترجمته قائلاً: ولم أسمع أحداً ينكر عليه شيئاً من
[illegible] بل يعتقدون [illegible] عقيدة [illegible]

وجاء الشعراني كما يجيء [illegible] للأرض [illegible] التي [illegible]
[illegible]

جاء الشعراني في اللحظة [illegible] التي [illegible] الله [illegible] ليكون
فاصلاً بين عهدين، [illegible] بين [illegible] جديدة وحياة جديدة

---

(١) [illegible] ج ٢ ص [illegible] ص ٣٣
(٢) [illegible] ج ٢ ص ١٢٤

[illegible] في [illegible] دولة [illegible]
دولة لاعطائها [illegible] والشهرة [illegible] وشهد [illegible] الكاتب
[illegible] على الطرق الصوفية [illegible] فصيح [illegible]
[illegible] في [illegible]

فأوقف [illegible] عن [illegible] الذكر [illegible]
الصوفي من [illegible] المشايخ [illegible]
[illegible] مستقيمة [illegible]

ولا [illegible] رسالة [illegible] السلف فالتصوف [illegible]
مهالك [illegible] الأشراف [illegible]

والشعراني [illegible] في [illegible] أولاء الشيوخ
وأتباعهم [illegible] وخدعه [illegible]
[illegible] وعقيدة [illegible]
الحكم وأولاه [illegible] الأمر [illegible]
للتصوف ومن في [illegible]

[illegible] من كل [illegible] الصوفي [illegible] وإن [illegible]
صولة ومكانة [illegible]

ولكن الشعراني رغم [illegible] قوة
[illegible] في جداله مع الفقهاء وحواره مع رجال التوحيد [illegible]
لأهوال التي [illegible] على [illegible]
عادته . لأنه يعلم [illegible] أخطر على الإسلام ومقدساته
من كل [illegible] ليحطم الهيكل [illegible] على [illegible]
الصرح القائم على الأنقاض والمنجنيق [illegible]

ثم [illegible] على الأنقاض [illegible] هو
[illegible]

وفى [illegible] هذا [illegible] نفسه ألف الشعرانى كتابه [illegible]، لا [illegible]
عن نفسه ولا يباهى [illegible] وعلمه وتصوفه كما ظن بعض المستشرقين
ولكنه يريد أن [illegible] كتابه [illegible] ويشكل [illegible]
بالتصوف [illegible] الإسلامية التى جمعت فى هؤلاء الأدعياء
[illegible] الأخلاق [illegible] الآداب الربانية فقد كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم [illegible] كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها
وكل متصوف صادق هو على [illegible] المصطفى وعلى هدى سيرته الكريم
« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

والحق من الناحية الموضوعية أن كتاب الأخلاق [illegible] العربية [illegible]
[illegible] أعظم كتاب [illegible] فى [illegible] الإسلامى

فلقد رسم الشعرانى فى كتابه هذا الخطوط العليا العريضة للأخلاق
الإسلامية من [illegible] كما رسم الخطوط العريضة الواضحة
لما [illegible] من [illegible] من شهوات
[illegible] من [illegible] النفس [illegible] فى [illegible] الإنسانى
[illegible] وشهوات

فالشعرانى [illegible] التصوف [illegible] الذى ينكر
على [illegible] أخلاقهم و[illegible]
ما ينكره الإسلام ويبرأ منه الإيمان ولا يرضى عنه الخلق الكريم

ولا [illegible] الشعرانى [illegible] هذا الكتاب إلى ما يشبه
الأسلوب [illegible] أو [illegible] القصصى [illegible]
الأدب فى هذا الكتاب [illegible] فى عصره و[illegible] التى
[illegible] التصوف [illegible]

[illegible] كل [illegible] عصر الشعرانى [illegible] لا [illegible]
[illegible] الأسلوب [illegible] الإرشاد
والتوجيه [illegible] الواضح [illegible] من القلوب والأرواح

ولعل هذا اللون من البيان الذي يشبه الدردشة الكلامية هو الأسلوب الحكيم الذي لا أسلوب سواه يصلح للدعوة إلى مذهب الإمام الشعراني [illegible] خطوطها ، وحدود أهدافها

يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب :

« هذه جملة من النعم والأخلاق التي تفضل الحق تعالى بها عليّ [illegible] في صحبة [illegible] القوم [illegible] عليهم [illegible] ورأيتهم في هذه الطروس أمورا [illegible] وكنت آمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لي يوما جماعة منهم هذه الأخلاق التي تأمرنا بها لا نجد أحدا تخلق بها من أهل عصرنا حتى نقتدي به فيها ، فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلقي بها [illegible] لئلا يبقى لكم حجة في ترك التخلق بها فلولا ذلك [illegible] »

يعلم الشعراني أن الأخلاق النظرية لا بد أن يكون لها من يمثلها ، لتشهدها الأعين حية متحركة [illegible] بين الناس [illegible] وأهل عصره لا يمكن أن يتمثلوا تلك [illegible] هذه الأخلاق نفسها . هذه الأخلاق التي قال معاصروه عنها إنهم لم يروا أحدا متخلقا بها

وليس معنى هذا أن الشعراني كان [illegible] هذه الأخلاق أو كان مدعيا في نسبتها إلى نفسه ، ولكن قصده أنه صاحب [illegible] في معاصريه أكمل وأتم

وفي سبيل هذه الغاية ألف الشعراني كتابه [illegible] البديع ( لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ) .

والعهود المحمدية التي عناها الشعراني هي خلاصة الدين الرباني أو صفوة الأخلاق المحمدية ، وكل أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه [illegible] .

ولقد وضع الشعراني هذا الكتاب ، ليعرض الفوارق الشاسعة بين أخلاق رسول الله ﷺ وهو المثل الأعلى لكل مسلم وهو الإمام الأكبر لكل صوفي ، وبين أخلاق الشيوخ المعاصرين له الذين هم أكابر التصوف ، ليعرف حتى المعاصرون الحق ويسمع نصح الناصح ، ويتبين كل من ينشد الهدى هل هؤلاء الشيوخ المعاصرون له قدوة لصوفي أم أدعياء جهلة أم مدعون مزورة ؟

يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب :

« هذا كتاب نفيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثله ، ولا أظن أحداً نسج على منواله ، ضمنته جميع العهود التي بلغتني عن رسول الله من فعل المأمورات وترك المنهيات

وكان الباعث لي على تأليفه ما رأيته من كثرة تفتيش الإخوان على ما نقص من دنياهم ولم أر أحداً منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه إلا قليلا فأحدثني الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم فوضعت لهم هذا الكتاب لينبه لكل إنسان على ما نقص من أمور دينه ، فمن أراد من الإخوان أن يعرف ما نقص من دينه فلينظر في أي عهد ذكرته له في هذا الكتاب ويتأمل نفسه ، يعرف يقيناً ما أخل به من أحكام دينه فيأخذ في التدارك أو الندم والاستغفار .

ثم اعلم يا أخي أن طريق العمل بالكتاب ونحوه قد توعرت في هذا الزمان وعز سالكها لأمور عرضت في الطريق سدت شرعها حتى صار الإنسان يرى الأخلاق المحمدية فلا يقدر على الوصول إلى التحقق بشيء منها فلذلك كنت أقول في غالب عهود الكتاب : وهذا العهد يحتاج من يعمل به إلى شيخ يسلك به الطريق ويزيل من طريقه الموانع » .

وفي سبيل الغاية التي رسمها الشعراني وهي الثورة على أدعياء التصوف ورسم المثل العليا للتصوف الصادق القائم على الكتاب والسنة ألف كتابه

الصوفي الرائع — الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية — حيث يوضح المنهج الصوفي النقي، والصلات التي تربط الشيخ بالمريد والمريد بالشيخ، والآداب الواجبة على كل منهما، كما شرح فيه معاني الأخلاق الصوفية، ومدى ما في الطريق الصوفي من أنوار، ومقتضيات تلك الأنوار من آداب وأخلاق، لأن النور ثمرة الحق، والأخلاق ثمرة العبادة الصادقة والطاعة المؤمنة.

يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب :

« وقد سألني بعض الفقراء الصوفية من الإخوان نفع الله بهم أن أملي جملة من آداب العبودية، كآداب الفقراء عموما وخصوصا وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم لأن الشيطان لهم بالمرصاد، ولا ينجو منه إلا القليل من عباد الله »

ولم نذكر هذه الكتب الثلاثة على سبيل الحصر وإنما ذكرناها على سبيل الرمز والمثال، فالحقيقة أن كل كتب الشعراني التي [illegible] على [illegible] لم تخل من هذا التوجيه، ولم تخل من هذا اللون من التوضيح والإرشاد.

هذا هو جانب الهدوء في صراع الشعراني مع أدعياء التصوف، أما الجانب الآخر فهو الصراع العنيف المرير والمعركة القاسية التي خاض الشعراني غمارها في وجه العاصفة [illegible] من عاصفة.

فقد [illegible] أن مصر حفلت في عصر الشعراني بطوائف من [illegible] يحملهم [illegible] واكتظت الشوارع والطرق بمواكبهم، والبيوت بولائمهم [illegible] وانتشرت الشيوخ والأضرحة في الريف والحضر، [illegible] المدن والقرى، وامتد سلطانهم إلى كافة مرافق الشعب، [illegible] الصوفية فوق الدنيا وفوق العرف وفوق الدين، واقتسموا فيما بينهم مناطق مصر، فاستولى كل ولي على مساحة من الأرض يتصرف في أهلها ويستغل مواردها

وكان على الشعب أن يكفلهم ويقوم بحاجاتهم ويظهر لهم الإجلال والولاء، وقد كان من أظهر مميزات التصوف في هذا العصر تحوله من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة اجتماعية تتمثل في حياة أتباعه وسكنى الزوايا والتكايا حيث يعيشون مع زوجاتهم من ريع الأوقاف الضخمة التي تحبس عليهم، ومن الأرزاق التي تجرى من أجلهم. وكانت هذه العطايا من الكثرة حيث أحالت بعضهم رجالا ونقلتهم ثراء، وكان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار في الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثروا حوله فصدوه وسدوا طريقه، وانهالوا على يديه وقدميه تقبيلا وطمعا تقربا إلى الله وبلى؟ (1)

ويروى لنا الشعراني من أخلاق هذه الطائفة القوية السائدة ما يثير أكبر عجب، لا نكاد نتصوره في عهدنا مع أنه كان اللون الغالب السائد في عصر الشعراني في دولة المجاذيب والدراويش.

كان الجهل الفاضح والخلط الشائن في الدين، من الجرأة على الدين هو طابع الشيخ والمريد في هذا العصر

يروى لنا الشعراني في معرض حديثه عن جهالة مشايخ الأحمدية والبرهامية في عصره أنه سأل واحدا منهم عن قواعد الإسلام فقال لا أدري فسأله عن فرائض الوضوء، فقال لا أدري!؟ فسأله عن شروط الصلاة فقال لا أدري!؟

ويقول الشعراني معلقا على هذا: «مع أنه شيخ كبير في زاوية يأخذ العهد ويتصدر الوعظ» (2)

ويحدثنا الشعراني عن شيخ كبير من هؤلاء الشيوخ جاء لزيارة الشعراني

---

(1) التصوف في مصر إبان العصر العثماني

(2) قواعد الصوفية ص ١٢٦

فسأله الشعراني عن بعض مسائل في الدين فصرح بعضهم بأنه لم يقرأ في العلم شيئاً لأنه يحتقر العلم ولا يعرف عن شروط الصلاة والوضوء كثيراً ولا قليلا لأنه غارق في العبادات . (١)

ويروي لنا المناوي في طبقاته الكبرى ، أن زعامة التصوف قد آلت بعد الفتح العثماني إلى رجلين يمثلان معسكرين ، معسكر التصوف العلمي الرباني ، ومعسكر الأدعياء الجهلة ، هما الشعراني ، وكريم الدين الخلوتي .

ثم يقص علينا المناوي قصة اللقاء بين الرجلين الزعيمين

قال المناوي

« سأل الشعراني الخلوتي عن مسألة في الوضوء فأغلق في وجهه الباب رغم زعامته وعلمه ، أصبح من شهرة بين الناس والأمراء ، فقال له الشعراني إنك لا تصلح صوفياً بغير علم فقال الخلوتي علمني فشرع الشعراني في تعليمه ثم زاره مرة ثانية ليواصل تعليمه فأغلق هذا باب زاويته في وجهه ، فعاد مرة ثالثة عسى أن يتمكن من تعليمه فأساء الخلوتي استقباله ، وأغلق الباب في وجهه ، وقال لمريديه ساخراً إن الشيخ الشعراني طلب أن يجعلني فقيها وأنا صوفي . قال الشعراني ففهمت من كلامه أنه يعتقد إن دعوته إلى أمر فيه نقص وقد أخذ الخلوتي ومريدوه يهزأون بالشعراني ويقولون إنه يريد أن يجعلنا فقهاء مثله » (٢)

ويصف لنا الأستاذ إدوارد لين — الذي زار مصر بعد انقضاء العصر العثماني بنيف وعشرين عاما في كتابه القيم عن مصر خلال هذا العهد زعماء التصوف في هذا العصر وصفا شجيا يقول .

« ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو عتابيل أو دجالون

(١) حبيب المصري ص ٤

(٢) طبقات الشعراني الكبرى ص ١٦٩

يسير بعضهم فى الشوارع عريا كامل العرى ويلقى من الناس كل الاحترام والتوقير حتى أن النساء لا يتحرجن للاتصال بهم بل يأذن لهؤلاء المجاذيب أحيانا بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحرارا كامل الحرية ولا يعتبر هذا فى عرف العامة [illegible] شيئا منكرا ولا منقصة بل هم يتبركون بما يشاهدون وما يحدث بينهم (١)

هذا موقف الشيوخ و[illegible] أما موقف المريدين والأتباع فيكفى أن نقول إن أحدهم احتاج [illegible] فى تزويج ابنته فمضى إلى أحد التجار ملتمسا قرضا فى نظير [illegible] شعرة من شعر أحمد من رأس شيخه فقال له التاجر ساخرا متهكما لو أعطيتنى [illegible] من شعر [illegible] ما [illegible].

وقد يعجب [illegible] لأكثر [illegible] الناس من شعر شيخه المقدس الذى لا يقدر بمال !؟

رأى الشعرانى تلك البلاء يحيط بالأمة الإسلامية فى مصر فسدد قلمه وأرسل لسانه فى ثورة ملتهبة وحملة صادقة تحتث أصول هذا البلاء وتحطم صرح هذا البهتان

وأخذ الشعرانى ينقض دعوى تلك الطوائف معرضا [illegible] متربصا حركاتها مدللا بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على مروقهم من الدين وبعدهم من الإيمان

ووقف الشعرانى فيما أتى بأن الأحمدية والرفاعية والسطوحية والأدهمية والمسبية والدسوقية فى عهده خارجون على شريعة الله لأن أصحابهم يسلكون طريق شيوخهم السابقين كما يسلكون الكتاب والسنة وهما أصل الإسلام وبرهانه المبين

وتعقب الشعرانى شيوخ عهده فشهر بهم تشهيرا مطهرا حقيقتهم من كفرهم وسوء

(١) كتاب الأستاذ فهمى ص ٢٣٤

أدعيم وأهم أصر من الدعم و... طريق التصوف وهو ... بكامله والزهد التام قد أصبح على أيديهم طريقاً من الشحاذة والتسول وهذا حتى في أعين الطغام كما نرى

ثم وضع الشعراني رسالته «ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى» فكانت السهم الأكبر هاجم بها مدعي الولاية زوراً وبهتاناً، وعمر في التصوف كذباً ونفاقاً، قائلاً أنهم يقمعون ملبس الزي فإن سألت شيخاً منهم عن قواعد الإيمـــان، قال لا أدرى، أو فرائض الوضوء قال لا أدرى؟ ولا يعرف الإسلام، وسلام من يجهل هو عقائده، فضلاً عن أن يكون شيخاً أو مرشداً

وألف الشعراني كتبه الكبرى «تنبيه المغترين» و«المنن الكبرى» و«العهود المحمدية» و«الأنوار القدسية» و«قواعد الصوفية» ليجلو الأخلاق الصوفية المثالية التي عرفها التصوف الصادق، وليظهر الفرق البعيد بينه وبين مواكب المتصوفين لمرتزقة الوثنيين الذين سموا أنفسهم فقهوا وباءوا بغضب من الله، ورحمة من الرسول.

## موقف الشعراني

### من المتصوفة العاطلين

وقد جر هذا اللون من التصوف الكاذب على الحياة الاجتماعية في مصر نكبات نالت من اقتصادياتها وعزائم أبنائها وأثرت في مقاماتها الدولية

فقد كانت العزلة والتعطل من المبادئ العامة المحترمة المعترف بها في بيئات متصوفة هذا العصر

فكل من تزيا بزي المتصوفة ترك العمل وانقطع إلى الزاوية أو التكية الخاصة بشيخه ، ورأى أن من حقه على الناس أن يطعموه ، وأن يقوموا بمعاشه بل ومعاش أسرته أيضا .

وقبلت الجماهير المصرية من هؤلاء هذا الوضع ، بل اعتبروا تقديم الطعام والملبس وما إلى الطعام والملبس إليهم واجبا يحتمه الدين عليهم

وللكسب والعمل في الإسلام مكانة لا تقصر عن الجهاد في سبيل الله ، مر على النبي صلوات الله وسلامه عليه رجل ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه في الكسب والاتجار ، ما جعلهم يتحدثون فيه قالوا يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله فقال صلوات الله عليه إن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو في سبيل الله .

وعاد بعض صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من سفر فأخذوا يحدثون الرسول عن رجل كان معهم كثير العبادة ، كثير الصلاة ، كثير الصوم متفرغا أبدا للقراءة . فقال لهم النبي ، من كان يقوم به في معيشته قالوا ، أخوه . قال أخوه أعبد منه .

ذلك هو منطق الإسلام ، لكن أدعياء التصوف أهملوه ونقضوه كما أهملوا ونقضوا كل عرى الإسلام .

وأدرك الشعراني خطورة هذا الأمر على الفكرة الإسلامية وعلى الناحية الاقتصادية في الأمة الإسلامية فخصص جانباً كبيراً من حديثه على أدعياء التصوف لتلك النقطة الخطيرة .

[illegible] الأدلة القاطعة على حرص كبار الصالحين من أهل التصوف على تجنب العيش على صدقات المحسنين .

ويعيب الشعراني [illegible] على العباد ، لأن هؤلاء لا يساهمون في نفع الناس [illegible] العبادة تقتصر نفعها على صاحبها [illegible] أن يعمل خياطاً مثلاً [illegible] مصلحته [illegible] وذلك هو الصحيح النافع للنفوس .

بل قد آثر الشعراني في دعوته حياة [illegible] على حياة الروح لأن هذه قد خرجت عن [illegible] الجسم وهي [illegible] حياة الجسم والعمل حتى لتعطي الصحة [illegible] التفكير [illegible] ولذلك كان أبو حنيفة يقول : لا تستشر من ليس في بيته دقيق .

ويصرح الشعراني بأن ترك التكسب بالعمل المشروع والتماس الرزق عند المحسنين كذلك مقصور [illegible] على مقام التوكل الصحيح (١)

ومن الجهالة كما يقول الشعراني ذم الدنيا إطلاقاً ، وآفة الدنيا النساء والذهب والجاه والأولاد ، ويكون الكامل لا يؤثر فيه شيء من هذه الآفات بل يستوعب حبها حبيبه ، لأن حب العارف في يده وليست في قلبه .

(١) العهود المحمدية ص ٣٠٦

ومن هنا [illegible] النكاح كما يعرفه الشعراني عبادة من [illegible] النكاح عنده أعظم النوافل التي [illegible] لأنه سبب [illegible] سبب بقاء النوع الإنساني

والزهد عند الشعراني كما يفهمه الشعراني لا يكون عن خلو اليد من متاع الدنيا، وإنما يكون عن خلو القلب مع امتلاء اليد، وكمال المقام في زهد القلب لا يتحقق بغير الزهد فيما يملك الإنسان التصرف فيه من غير مانع. أما الزهد مع خلو اليد فربما كان مصدره الإملاق وهذا ينفي شرط الدعوى في أنه لا يكون كامل التجرد من دنياه

وهذا بالإضافة إلى أن شر ما في الإملاق يحوج صاحبه إلى سؤال الناس بالحال أو بالمقال، وهذا يهون في نفوسهم أمره، ويضعف عندهم تأثير نصائحه. وعلى الضد من ذلك إن كان صاحب مال يفيض عن حاجته فيغدق منه على مريديه وغيرهم من المحتاجين (١)

وتلك نظرة أعمق من الشعراني في فهم الدين وتصور رسالة العابد الزاهد فلم نجد لها مثلا في تفكير رجال الدين

ذلك موقف الشعراني من أدعياء التصوف، وليس معنى هذا أن هؤلاء الأدعياء، وهم قوة ضخمة عاملة في المجتمع المصري، قد استكانوا لحملة الشعراني، وألقوا السلاح أمامها بغير حرب ولا قتال.

لقد حاربوا الشعراني بكل سلاح واعتدوا عليه، وتربصوا به الدوائر، ودسوا له في كتبه، [illegible] بتشويه [illegible]، وحاولوا عليه [illegible] أرصدوا له من يقتله غيلة وغدرا

وقد أشار المناوي والشبلي إلى التعاون الذي قام سرا بين هؤلاء المتصوفة وبين الفقهاء ضد الشعراني في مؤامرة الأزهر الكبرى التي اتهم فيها الشعراني بالكفر كما سيأتي بيانه عند الحديث عن صراعه مع الفقهاء

---

(١) العهود المحمدية ص ٦٥

فقد تحطمت حملات أدعياء التصوف على الشعراني ؛ لأنها صادفت لدى الشعراني قوة روحانية لا تغلب ، وقوة علمية لا تحارب ، وقوة خلقية لا تسمو إليها الأحداث حتى يهتضم الشعراني ، فقد نعمت أيامه أصفى ولا تسمو حتى تمر بحبيب من الخطب ، وهى كلها لا تعرج على موقف لا يرضى أى حق .

رجل يعمر فهو علمه ، وما هى مكانته ، وما به عمل لا تحوم به الشوائب وإنها مكانة لا تسمو منها الشبهات .

من أدب حملة الشعراني رده القصص على عمود مؤلفه الشيوخ الجهلة الأدعياء ، كما تجرب حركة صوفية صحيحة صادقة بالغة مصيره .

حركة تصفها كتب التاريخ والمناقب بأنها عادت بالتصوف إلى عصوره الأولى ، إيمانا وزهدا ومعرفة وعملا ، ورشد السالكين إلى أمر ما فى الحياة من أخلاقيات وسلبيات .

وحسب الشعراني هذه الرسالة وحدها ليمثلها مجدد لعصره المجاهدون مع أنها كانت جزءا من حياته ، ولم تكن كل رسالته .

# الشعرانى

# وفقهاء الأزهر

## الصراع بين الفقه والتصوف

الفقه والتصوف صورتان من صور النشاط العقلى فى التفكير الإسلامى، ووجهان من أوجه التشريع للأخلاق والمثل الروحية للرسالة المحمدية. ومع هذا فالخصومة بينهما قديمة تاريخية، منذ عرف الناس التصوف والفقه.

ولقد كان الفقيه فى صدر الإسلام، هو النموذج الكامل للرجل الكامل فى الإسلام، كان الفقيه هو العابد العالم الزاهد المجاهد، يجاهر بكلمة الحق القائم على الحجة، يشد أزر الحق بعلمه وعمله، ويأخذ بأيديهم إلى ما يرضى الله وإلى ما شرع الله، وإلى ما فيه خير الأمة الإسلامية والمجموعة البشرية كلها. ويومئذ كان الفقيه والصوفى شيئاً واحداً وكان التصوف والفقه اسمين لمعنى مشترك.

كان الفقيه هكذا، يوم كان الفقه هو روح الإسلام وجوهر الرسالة المحمدية، يوم كان الفقه تشريعاً وخلقاً وعبادة وعملاً، يوم كان الفقه لا يعرف الحيل الشرعية، ولا التعريفات الافتراضية الشاذة، ولا ألاعيب الألفاظ التى تقتنص الرخص وتستهدف المتعة فى ميادين الجدل والحوار.

ثم أخذ الفقه الذى نعرفه اليوم يتكون شيئاً فشيئاً، بل أخذ يبعد شيئاً فشيئاً عن أخلاقياته ومثالياته وصفته الأولى، وأخذت ملامحه تتبدل وتتغير وتتلون بألوان الثقافات التى تسربت إليه ونفذت به، وتسترت وراء تشريعاته.

فصار الفقه عندئذ أكثر منه عملا، وأصبح كذلك معقولا أكثر منه [illegible] وموجها للقانون، بل أصبح وسيلة للحياة وسلما للمناصب وحرفهم.

وبذلك أصبح الفقيه أداة العدل لم تعد أدواته رجال القانون، وترك تهذيب النفوس لحساب منصب القضاء، وعرض عن الأخلاقيات والكتب ليتبع مع السلاطين وينفث مع الوشاة إلى جمع الجاه ومتاع الحياة، وما تزخر به الدنيا من مناصب ومباهج.

ومن هنا تخصص الفقه عن التصوف، أو انفصل التصوف عن الفقه، واختلفا طريقة ومنهاجا، وغاية وهدفا.

يقول ابن خلدون في مقدمته متحدثا عن نشأة التصوف وعن سمات أصحابه:

«وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على الله باسم الصوفية».

اختص المتصوفة بشهادة الكاتب الكبير ابن خلدون، بالأخلاق الإسلامية التي كان عليها الصحابة رضوان الله عليهم، وبالإقبال على الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يتنافس فيه الناس، بل فيما يتقاتل عليه القطيع العام من البشرية.

واختص المتصوفة أيضا بأنهم جمعوا بين العلم والعمل، فالفقيه عندهم هو الصوفي العابد، هو الذي يستمد إيمانه من قلبه لا من عقله، هو الذي

يطلق عليه عنده لأن العقيدة هي العمل ولأن العمل شرط العلم الديني

كانت المتصوفة بابتعادهم عن الخلافات اللفظية والمماحكات الافتراضية التي تبعد بين المسلم وجوهر دينه، والتي تصرف العقل الإسلامي عن وجهته الأولى وهدفه الأسمى، والتي تعتبر وصمة دخيلة على الإسلام بعيدة عن روحه الفطرية السليمة، أولى منهم أولئك بالاشتغال بما يطهر القلب ويزكي الجوارح ويسمو بالروح إلى طاعة الله والعمل على رضاه.

وعلى ضوء هذه العقيدة آمن المتصوفة بأن رجال الفقه المتأخرين أو أكثرهم انحرفوا عن مناهجه الإسلامية، ولم يقوموا بجوانبه التعبدية والأخلاقية، فغدوا رجال قانون وتشريع، لا رجال عقيدة ودين.

عن عمران القصير قال: سألت الحسن البصري عن شيء فقلت إن الفقهاء يقولون كذا وكذا، فقال: وهل رأيت فقيها بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه عز وجل.

وكان أبو طالب المكي يقول:

«علماء الدنيا — أي الفقهاء — قعدوا على طريق الآخرة فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل، وكان يشبههم بالقبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى (١)»

وكان الغزالي وهو الفقيه الأصولي الكبير يقول:

«صارت كلمة الفقه إلى تفريعات الطلاق، وصور الإيلاء والعتق والعروض ووجوه السلم وغير ذلك مما لا يتصل به زهد، ولا تعرف بل كلما كان التجرد له والإكثار منه وحفظ المقالات المتصلة به يقسي القلب وينزع الخشية منه، صارت إلى هذا بعد أن كانت عنوانا على معرفة دقائق النفس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة مع استيلاء القلب بخوف الله ورجائه.»

---

(١) قوت القلوب ج ١ ص ١٤١

وكان أبو العباس يقول : شاركنا الفقهاء فيما هم فيه من علم ولم يشاركونا فيما نحن فيه من عادة وأخلاق .

ورجال الفقه من ناحيتهم نظروا فرأوا أن الصوفية فئة عامة غير محدودة بالحدود التي تتحدد بها العلوم ، وأن طرق الصوفية قد ملأتها عوامل شتى من بينها الدخيل والأصيل .

كما شاهدوا أتباع فرقة جديدة الصوفية وهم يكونون لأنفسهم علوما ومعارف من أغراض الروح ومعارج القلوب ، وأنهم قد ابتدعوا فنونا في المحبة الإلهية وما تحتوي عليه هذه المحبة من وجد وشوق وجذب وفناء وسر وأسرار ، ويبتكرون أيضا أنواعا أخلاقية في الذكر والخلوة والسماع ومقالات تطوف حول عادات أوجبوها على أنفسهم وفي الفرائض والنوافل مقيمين من ذلك كله مستوى أصحابه يدورون حول أمراض القلب وأدويتها ، وحديث النفوس ووساوسها ، ومجالات الروح وإلهاماتها .

وكل هذا بدا في نظر الفقهاء أو في نظر أكثرهم ابتداعا في الدين وانحرافا عن الحياة المثلى ، وتمردا على ما اصطلحت عليه العقول في بدء نشأة الدين .

وأخطر من هذا المظهر الديني عندهم ، فقد آمن رجال الفقه بأنهم وحدهم سدنة الشريعة ، وأنهم وحدهم سدنة الدين وحراس حماه المقدس ، وليس لغيرهم أن يرتدي ثوب الدين ويلبس هذا الثوب ، وليس لغيرهم أن يقول في الدين رأيا أو يبت في مشكلة فيه أو حكم .

ومع إيمان الفقهاء بهذا فقد انتزع المتصوفة الأمر من أيدي الفقهاء وتزعموها دونهم واحتفظوا بهذه الزعامة على التاريخ رغم ما لاقوه في سبيل هدمها وإزالتها .

وكان هذا وحده كفيلا بأن يذكي نار الخصومة وأن يبعث الحقد في

قلوب الفقهاء فحملوا [illegible] على التصوف والمتصوفة حتى استعصت فيها ثقة الأمة من المتكلمين كما حدث في تاريخ التصوف [illegible] في القاهرة [illegible] فقام [illegible] على الذوق وأبو الحسين النوري وغيرهم من أئمة التصوف [illegible]

إلى القضاء الرسمي لدى الأمراء والملوك بدعوى [illegible] وتدبير المؤامرات كما حدث في مأساة الحلاج ونكبة السهروردي .

أو إلى القتل العلني في جمع العلماء كما حدث للمناوي تلميذ الشعراني الأكبر وصاحب الكواكب الدرية في طبقات الصوفية

ورغم هذه الخصومة الحادة التي حمل لواءها جمهرة الفقهاء للتصوف والمتصوفة كان أئمة المذاهب من المتصوفة حالا وعملا وخلقا [illegible] مما يحمل على الاعتقاد بأن أساس الخصومة دنيوي لا ديني

كان أبو حنيفة فقيها صوفيا ، وكان الشافعي [illegible] دقائق المسائل الفقهية إلى [illegible] حضرة الصوفي ويقول عنها إنها صوفية ، وكان يقول : [illegible] من الصوفية حرفين عجيبين لم [illegible] الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، وقولهم : [illegible] نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالشر ،

وكان أحمد بن حنبل يسمى شيبان صوفيا ويأمر ابنه عبد الله بصحبة الصوفية ليقولوا فيه ، وقد سئل من الناس فقال العلماء ، ومن الملوك فقال الصوفية ، ومن السفلة فقال الذين يعيشون بدينهم .

وكذلك كان مالك والليث بن سعد وسفيان الثوري حتى إن المتصوفة قد أدرجوا هؤلاء الأئمة في طبقاتهم على أنهم من أئمة التصوف ورجاله الأوائل

وكذلك كان كبار المتصوفة فقهاء [illegible] لم تعجزهم [illegible] في مذاقاتهم على أغيارهم من السادة الفقهاء [illegible] كالجنيد والحسن البصري ومحيي الدين ابن عربي والغزالي والشعراني

والحقيقة أنى نعثر على نصوص تثبت أن التصوف والفقه يتلازمان متلاصقان لا يغني أحدهما عن الآخر وهما وجهان لفكرة واحدة هي الإسلام الذي لا بد فيه من شريعة وحقيقة وشريعة وحقيقة لا تنفصم

حتى يقول أحمد زروق: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق.

ويقول الأستاذ آدم متز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري —

«ومعظم الصوفية متصوفة وفقهاء معاً ومن العلماء كان فيهم مثلاً كثيراً من الصوفية، وهذه حقيقة واقعة، وقد كانت علوم الصوفية القديمة أهم العلوم وأكثرها نجاحاً فقد كانت هي الحركة الصوفية التي صنعت أعظم القوى الدينية في ذلك العهد.

ثم يقول:

«والحركة الصوفية في القرنين الثالث والرابع رجعت في الإسلام ثلاثة مبادئ أثرت فيه تأثيراً كبيراً وهي الثقة والصوفية الكاملة بالله تعالى والاعتقاد بالأولياء وإجلال النبي محمد ﷺ، ولا تزال هذه المبادئ الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً في الحياة الإسلامية ومن هنا التصوف الذي ظهر به أصدق الصوفية هو من خصوصية العلماء المتصوفة».

ويقول الشعراني في الميزان:

«واعلم يا أخي أنه تعالى لا إنكار للذي يقع من الفقهاء والصوفية لكونه هو من القاصر من كل منهما ولا أنه كامل من الفقهاء يسمي نفسه والصوفي يسمون الفقهاء، لأن الشريعة جاءت على مرتبتين تخفيف وتشديد ولكل من المرتبتين رجال في حال مباشرتهم للأعمال، فمن قوي منهم خوطب بالتشديد، ومن ضعف خوطب بالتخفيف والأخذ بالرخص، فكما أن موسى عليه السلام كان على هدى من الله فكذلك الخضر عليه السلام. ولهذا سلم موسى للخضر حين الأمر لعلمه أن الشريعة مرتبتين مرتبة خاصة وعامة للناس، ومرتبة خاصة بالعارفين ولا اختلاف في الجوهر بينهما».

## فقهاء عصر الشعرانى

بين الخصومة بين الفقه والتصوف كما يقول المستشرق آدم متز هو التنافس على التحكم فى الجماهير، وكما يقول الشعرانى: إن الجهل هو الذى يحرك الخصومة.

والحق أن الصراع على الدنيا كان طابع الفقهاء أو أكثرهم فى عصر الشعرانى، وهذا واجه الشعرانى أكبر المعارك التى عرفها التاريخ بين الفقهاء والصوفية.

جاء الشعرانى والأزهر فى عصر من عصور جموده وتخلفه، فقد خبت حتى تلك الشعلة المتقدة التى ظلت تضيء فى الأزهر قرونا متتالية، وانطفأت المصابيح التى كان الأزهر يفخر بها ويباهى والتى كانت السمع والبصر للعالم الإسلامى.

جاء الشعرانى والأزهر يعيش داخل كتب الشروح والحواشى التى ألفت فى عصور الجمود الفكرى والبلادة الذهنية، ويقتات على موائد هذه الحواشى من غير أن يكون له فكر أو رأى أو مناقشة لفكر أو رأى.

كان العصر الذى يظلل الأزهر هو عصر الشروح والحواشى التى لا تنتهى بنتيجة ولا تهدف إلى فكرة محددة، فكان العلماء يتناولون المتن الذى وضع من قبل فيضعون له الشروح والتعليقات، ثم يأتى بعدهم من يتولى شروحهم بالشرح والتعليق، وهكذا حتى يخرج الكتاب عن موضوعه وكثيرا ما تخرج الشروح والحواشى إلى موضوعات لا تمت إلى الأصل بسبب بل لا تمت إلى العلم بسبب.

وهكذا ساد الأزهر ركود عقلى لم يعرفه من قبل، وتحول الأزهر إلى مدرسة للفلسفة والجدل حول فرعيات وافتراضات فقهية أبعد ما يكون عن جوهر الفقه وروحه.

وبذلك قضى الشعراني على الروح الإسلامية التي قام الأزهر لإعلاء كلمته وكشفوا شرح والإعراب ودرسوا أوجه القراءات القرآنية وحس القضاء الشرعية

وجاء الشعراني وهو يسخر منهم ومن جمعهم إذا عادة الكبرى وما جمعهم في حدودهم المقدس وبزل الذين ذكرهم فوق رؤوسهم، ويسب الخير عليهم ودعاها إلى هدمهم والخروج من سلطانهم

ناعيا عليهم انشغالهم عن الأخرى الدنيوية فضلا عن العلم ونعيهم عن فضائل النفس وطهارة القلب، مذكرا إياهم بالآية القرآنية مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ،

ثم يفرق الشعراني بين طريقتهم في العلم وبين طريقة التصوف وبين موقفهم من القرآن الكريم وموقف المتصوفة فيقول

« فالمتصوفة علموا أن المراد من العلم وتلاوة القرآن لا الحافظ والرحل والتحريف وأنهم يسألون عن كل مسألة علموها ولم يعملوا به

ولذلك كان أهل الله غائبين عما يقصده طالب القراءة بقراءتهم لما هم فيه من الخشوع عند التلاوة فلم يبق متسع للسواه فلم يشغلوا أنفسهم بالقراءات والاختلاف فيها لأن ذلك يضيع العمر ولا يقصد بعضهم برواية أبي عمرو مثلا، ولم يقصد أحد من السلف أن يقرأ بجميع هذه الروايات

طريقة تمد وطريقة تضم وطريقة ترقق وغير ذلك من وجوه الاختلاف الذي برع فيه رجال الأزهر.

بل كانوا عبادا بالله صائمين قائمين خاشعين فلم يكونوا مقتصرين على حفظ المسائل فقط بل كانوا عاملين بها

لم يصرفوا حياتهم في علم القراءات ووجوهها وإنما اتجهوا بقلوبهم إلى معاني القرآن من مواعظ وحكم وعبر وآيات بينات »

ويضرب الشعراني لذلك مثلا فيقول

«كأنني أرسل إليه السلطان كتابا يأمره وينهاه بأمور كثيرة فأخذه وقبله ووضعه على رأسه ثم صار يقرأ من ألفاظه ليلا ونهارا أو يعلمه الإعرابه والتفخيم والترقيق ثم أرسل له السلطان ينظر هل عمل في الأوامر والنواهي فوجده لم يعمل بشيء منها وهو عاكف على قراءته فهل هذا مرضي للسلطان وهل هذا فعل من له لب أو عقل (١)»

ثم يقول الشعراني متهكما بهم لأنهم يدرسون ولا يعملون

«وهل تقول يا مسكين في الخير والمنادية على جميع دعوته لأنه كان يحفظ أبواب المعاملات أو يخص أبواب الفقه والنحو والأصول على ظهر قلبه أو يقرأ المد والإمالة والتفخيم والترقيق. كلا والله لا يكرم بشيء من ذلك إنما يكرم بالتقوى والعمل الصالح ومعرفة الله عز وجل وكف الأذى عن جميع الأنام ومن شك في ذلك فسيراه غدا (٢)».

ولقد خصص الشعراني الفصول الطوال في كتبه للحملة على الفقهاء الخاصين بل خصص كتبا كاملة لهذا الغرض مركزا حملته الكبرى على انحطاط الأخلاق الإيماني الذي حدث في الأزهر

يقول المستشرق «بولر» في دائرة معارف الدين والأخلاق «إن الشعراني في كتابه البحر المورود كان جريئا في مهاجمة الفقهاء وانتقاد تعصبهم وزهوهم والتشهير بجشعهم وتهافتهم على الوظائف».

ويقول «نيكلسون» «إن الشعراني كان لصحة عقيدته بالدين يحارب الفقهاء بسلاحهم وبذلك نجح في حملته التي تركت أكبر الآثار».

---

(١) آداب العبودية ص ٩٢

(٢) آداب العبودية ص ٩٧

وحملة الشعراني على الفقهاء من رجال الأزهر الذين لم يحققوا الآداب الإسلامية ولم يقوموا بواجبات العلم الديني ، ولم يفقهوا حق روح الفقه الإسلامي تشغل جانبا كبيرا من جهاده في سبيل بناء الفكر الإسلامي من جديد

وفي حياته نشأت عنه أحداث كبرى أثرت بل أحدثت صدى في حاضر الأزهر في أيامه وفي تطوره فيما بعد ذلك

فقد انقسم الأزهر إلى فريقين . الفريق الأول ينصر الشعراني ويؤيده ويدعو لدعوته ويشايع الأزهر بتحقيق رسالته . أما الفريق الثاني فقد أعلنها خصومة مرة حادة أحاطت بالشعراني ولاحقته حيا وميتا .

بل لقد كانت حياته سببا في ذلك الشائعات الكاذبة التي أحاطت بالشعراني وتعاقبت إلى يومنا

بل أخطر من هذا كانت السبب المباشر لمؤامرة طالما أصابت رجال التصوف ، وهي مؤامرة تشويه كتب الشعراني بالدس والتحريف فيها .

ولا عجب في هذا فقد زوروا كتبا على الشعراني في حياته ، وزوروا مقدمة لبعض كتبه بين سمعه وبصره مما سنعرض له بالبيان والتفصيل

## ثورة الأزهر

### على الشعرانى

نقم الفقهاء على الشعرانى لخطره على مذهبهم ، ولأنه تجرأ على علمائهم واستعلى على مكانتهم ، وتحكم بعلمه فيهم وفى مناصبهم

وأخطر من هذا أنه انتزع زعامة الجماهير من أيديهم ، وظفر وحده دونهم بالكلمة النافذة والمكانة العليـــة لدى الأمراء والملوك فى مصر وإستانبول معا .

وأعلن الحرب عليهم وعليه من جانبهم ، معركة على الحياة بل معركة على البقاء ، أو معركة البقاء . لا تعرف اللين ولا الهوادة بل هى الحرب اشتبكت بكل ما فيها من قسوة ، وبكل ما تملك من أسلحة كريمة وغير كريمة

والفقهاء دائما فى حروبهم مع المتصوفة ومع غير المتصوفة ممن يقعون فى دائرة المنافسة ، يستعملون سلاحا رهيبا نجح على الدهر فأثبت كفاءته وأثبت أنه السلاح الحاسم الفتاك

وهذا السلاح ، هو سلاح التكفير والمروق من الدين . والدين لديهم من مرونة عجيبة ، مرونة تسمح لهم أن يقدموا الدليل على كفر من أبغضوا ، ويقدمون نفس الدليل على إيمان من أحبوا ، ولهم كل السبق فى التأويل الملتوى المطاط ، والتلاعب البارع بالألفاظ والمقدسات

وأعجزهم مع الشعرانى حتى هذا الدليل المطواع ، فالشعرانى كما قدمت كان صوفيا على الجادة الوسطى والنهج المعتدل كالصراط ، لا يسمح بشطح الصوفى ، ولا يرسل الكلم المجمجم ، ولا يعرف اللفظ الذى يحتمل الوجهين ولا ينطلق فيه فى مقامات الفناء واستغراقات المحبة وشطحات الوجد .

وإذن فليحاولوا الدس فى كتبه ، وليعمدوا إلى الافتراء ونسبة ما لم يقل إليه

ويبدو أن معركتهم تحالفت مع أعداء التصوف من جهة الأمير المدافعين لأنهم وإن كانوا حفظوا على قدر ولا أخلاق فلا خطر منهم على نفسه والفقهاء.

وثارت الفتنة البكرية، واشتعلت الحرب في الأزهر على الشعراني، فرموا مقدمة كتابه «كشف الغمة»، وحشوها كفريات سخيفة لا تصدر من عاقل أو مؤمن.

ودسوا في كتابه «البحر المورود» وهو الكتاب الذي هاجمهم فيه، تعاليم تخالف ظاهر الكتاب والسنة [illegible] عليه وجوها من البحث لا تتفق مع وقاره وصلاحه، وصوروا من الأعمال الماجنة الساذجة ما لا تليق به ومكانته وأرسلوا هذه النسخة المزيفة إلى الحجاز وتركيا لمكانة الشعراني فيهما بعد أن أذاعوها في مصر والأزهر.

ثم لجأوا إلى سلاح الإحراج الذي يتبعه الضعفاء [illegible] مع التاريخ وهو التحريض والدس والإحكام على المتصوفة، فحرضوا سلطان مصر وخليفة تركيا على الشعراني بدعوى خطورته على الأمن والنظام والدولة والسلطان والخليفة.

يقول الشعراني (١):

«ومما من الله به علي صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا عني في كتبي كلاما يخالف ظاهر الشريعة، وصاروا يستفتون علي زورا وبهتانا ومكاتبتهم في باب السلطان ونحو ذلك.

واعلم يا أخي أن أول ابتلاء وقع لي في مصر من هذا النوع أني لما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة زور علي جماعة مسألة فيها خرق إجماع الأئمة الأربعة وهي أني أفتيت بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها لما كان وراء الصدد حاجة فلما [illegible] وشاع ذلك في مصر و[illegible] بعض الأعداء مكاتبات

---

(١) منن الكبرى جزء ٢ ص ١٩٠

سبك إلى مصر [illegible] وحدث من مصر حصل في مصر [illegible] عظيم حتى وصل ذلك إلى أقليم الغربية والشرقية وتصحيحها [illegible] لمدونة عصر [illegible] خصص لأصحاب عنه القصر [illegible] ورجعت من مصر [illegible] وأحب غالب الناس بمصر إلى شيء فقلت ما بال الناس فأخبروني بالمكاتبات التي جاءتهم من مكة.

ثم يقول الشعراني

« ومما وقع لي أني لما صنفت كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود وتسارع الناس إلى كتابته [illegible] من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض أصحابي واستعاروا منه نسخة وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائغة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين، وحكايات وسخريات عن جحا وابن الراوندي وسبكوا ذلك في غضون الكتاب في مواضع كثيرة ثم جلدوا تلك الكراريس وأرسلوها سوق الكتبيين في يوم السوق وهو مجمع طلبة العلم، فنظروا في تلك الكراريس ورأوا اسمي عليها فاشتراها من لا يخشى الله ثم دار بها على علماء الجامع الأزهر فوقع بسبب ذلك فتنة كبيرة ومكث الناس يلوثون بي في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة.

ثم يقول الشعراني

« وإن علي باشا الوزير نقم على بعض المباشرين وعزم على قتله ونفيه فطلع بعض العلماء يشفع فيه فلم يقبل فأتوا إلي فسعيت عند الباشا فأكرمني وقبل شفاعتي، وقال لي لا تكلف خاطرك تصعد إلى طلوع القلعة وأرسل بورقة فقط فعلم بذلك الحسدة فاجتمعوا وزيفوا علي مسائل في العلم كاذبة وأضافوا إليها أمورا منفرة لمن يفشه ثم رفعوها إليه فلما قرأها قال أما المسائل المتعلقة بالشريعة فذلك يرجع إلى العلماء وأما غير ذلك فلا نقبله فيه أبدا، وإن رجعت في أمره إلى قلبي فأرسلوا إليه قصة ثانية ولم يتم [illegible] وشاع في مصر أن الباشا يحب فلانا فقال الحسدة قد صار أهل مصر مع الشعراني وكذلك الوزير فاكتبوا فيه قصة ترسل لباب السلطان

فتتلخص قصته خلاصته أن شخصاً في مصر قد ادعى الاجتهاد المطلق وكثرت أتباعه وخاف على المملكة منه والمشتكون من صدقات مولانا السلطان فيه من مصر

ووشوا بعض الوزراء يحتجون بين السلطان فحملها إليه، وقص الله في الشيخ عبد الوهاب أمين الدين حتى كل هذا وقال إن قصته كلها زور على الرجل الصالح»

محاولة قتل الشعراني

فشلت مؤامرة الخصوم لدى الوالي ولدى الخليفة، كما فشلت حملة الإفك والدس والتشهير داخل الأزهر وخارجه

فقد انتصر للشعراني في الأزهر طائفة من أئمة العلم وأولى المكانة في الدين في مقدمتهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وشيوخ المذاهب الأربعة في الأزهر الشيخ الحنبلي، وناصر الدين اللقاني، وشهاب الدين أحمد، وشهاب الدين الرملي

كما استطاع الشعراني أن يظهر للحاقدين وهمهم كذب ما دس عليه ونسب إليه بتقديمه لأصول كتبه فازدادت مكانته لديهم وازدادت دوائره حقاً

ولم يبق لخصومه بعد هذا إلا أن لجأوا إلى السلاح الثالث والأخير، سلاح الغيلة والقتل، فرصدوا له في الطرقات من يفتك به، ودسوا له السم كما دسوا له دسائسهم الأخرى، الحاوى، ووضعوا المأوى شهد تدبيرهم ونجى الله الشعراني مما دبروا وقدروا

وأخيراً تحطمت أسلحة خصومه ولم يتحطم الحقد في قلوبهم فأتوا أمراً إداً عجباً يدل على المرارة القاتلة التي يحملونها للشعراني

لقد أشاعوا بأنه مات كذباً ليطفئوا غيظ قلوبهم

يقول الشعراني: «ومما وقع لي أن بعض الأقران في الأزهر عمل عليه

الصيد حتى أشيع عنه في الجامع الأزهر وغيره أنه مات وقال الجبرتي حدثه ثقات أن فلانا مات شهيدا وأرسل بذلك كتب إلى دمياط ورشيد والإسكندرية »(١)

وذهب خصوم الشعراني وبقي الشعراني حيا خالدا في كتبه وآثاره التي ترشد الناس إلى دينهم وتعلمهم مكارم الأخلاق وترفعهم إلى [illegible] التقوى والإيمان

(١) [illegible] جزء ٢ ص ٢٠٢

# الشعراني وعلماء الكلام والتوحيد

[illegible]
[illegible]
[illegible]

جاء في كتاب أعلام الموقعين

«وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانا، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة، كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يسوموها تأويلا، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا، ولم يبدوا لشيء منها إبطالا، ولا ضربوا لها أمثالا، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم».

ذلك هو منهج صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الذين تأدبوا بأدب رسول الله الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه.

لا يعرفون جدلا، ولا خوضا في أسماء الله جل جلاله وصفاته، ولا يفترقون شيعا فيتشعبون في القضاء والقدر، ولا يرضون عن [illegible] يقوم حول نسبة الأفعال إلى الله أو نسبتها إلى عباده.

فإن كل هذه المسائل من علم الله تعالى لا تدركه العقول، وعلم الله الذي اختص به لا مجال للعقل البشري فيه، ولا ينبغي له التطلع إلى أسراره وخوافيه.

فإذا حاول العقل البشري أن يتخطى حدوده ضل، وفسق عن أمر ربه، وألقى نفسه إلى تيه لا هدى فيه ولا نور ولا دليل مبين.

وهذا هو ما حدث لكل الفرق الإسلامية التي حاولت أن تتحدث في علم الله، وأن تتطاول إلى الغيب، فتدرك أسرار القضاء والقدر،

أو لتسوى في حقائق الصفات ... وأنها حادثة ومقام نفيه من آثر الله جل جلاله فيه

جاءت هذه الفرق ومن بعدها ... خوضاً في الإلهيات ... وأن ذلك ... لا يجوز ... كما ...

وعلى مع هذه الفرق المتقدمين ورجال متكلميهم وعلماء التوحيد لأنهم فرضوا للإيمان وشكلوا لمعرفته صوراً، وأقروا ألا تقوم الإيمان إلا بها، ولا تكمل المعرفة إلا بمعرفتها.

وهي صور وألوان ابتدعوها وافترضوها لا يعرفها القرآن ولا تعرفها السنة، بل ولم تعرفها الصحابة ... ولم تخطر بعقولهم، وقد تسربت إلى الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية الوثنية المستحدثة.

يقول الصلاح الصفدي في شرح لامية العجم: إن المأمون لما هادن صاحب جزيرة قبرص كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلا مطران واحد فإنه قال: جهزها إليهم، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها.

ويقول ابن الجوزي في تلبيس إبليس (١)

«وكيف لا يذم الكلام وقد أفضت المعتزلة في تعمقهم ... إن الله عز وجل يعلم جمل الأشياء ولا يعلم تفصيلها. وقال جهم: علم الله وقدرته وحياته محدثة، وقال أبو علي الجبائي، وأبو هاشم ومن تابعهما من البصريين: المعدوم شيء وذات وعين وجوهر وبياض وصفرة وحمرة، وإن الباري سبحانه وتعالى لا يقدر على جعل الذات ذاتاً، ولا العرض عرضاً، ولا الجوهر جوهراً وإنما هو قادر على إخراج الذات من العدم إلى الوجود».

---

(١) ص ٨٣

وقال النظام «إن الله عز وجل لا يقدر على شيء من الشر» وإن الإنسان يقدر على الخير والشر .

ويقول أبو الفرج معلقاً على ذلك «سمعته يحدثني بحديثه وأعوذ بالله من هذا وغيره أوجبت هذه المذاهب الفضيحة» .

وكان أبو الوفاء بن عقيل يقول «أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت» .

لقد دفع رجال الكلام وعلماء المنطق والمتأولون بما من عقلهم ومعارفهم بالأمة الإسلامية إلى شكوك ومجادلات وضروب من البحث قلما باعدت بينهم وبين الإيمان ، وباعدت بينهم وبين روح الإسلام وباعدت بينهم وبين العبادة لله ، والعمل الصالح للحياة .

ووقف المتصوفة وحدهم على الجادة المستقيمة ، والطريقة المثلى يؤمنون بالقدر كما جاء به القرآن وكما علمهم رسوله ، ويؤمنون بأسماء الله جل جلاله وصفاته المقدسة كما سمعوها وكما وصفها القرآن وكما نطقت بها السنة من غير تأويل ولا تعليل ولا تعطيل ولا تمثيل لأن الإيمان يجب أن يكون بما أنزل الله من الألفاظ والمعاني لا بما تؤوله العقول ، وتبتدعه التصورات ، وتخلقه المنطق .

يقول محيي الدين «ومن العجب أن الله تعالى يخبر بشيء عن نفسه في كتابه المحكم فيأتي الإنسان بعقله القاصر فيقول إن عقلي يرد ذلك وفكري لا يعطي ذلك ، ويذهب إلى التأويل ، والناس عاقبة هذه التأويلات أن ضيعوا من حياتهم وتفكيرهم حالة غير ما في كتاب الله» (1)

ويقول الإمام الغزالي «إن من أشد الناس غلواً وإسرافاً طائفة من

(1) الفتوحات الجزء الأول .

المتكلمين كفروا عوام المسلمين، زعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتهم، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التي حرروها فهو كافر.

لقد ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولا وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين (١)

ويقول الحلاج: من لا يعرف شعرة من بدنه كيف نبتت سوداء أم بيضاء كيف يعرف مكون الأشياء؟ ومن لا يعرف المجمل والمفصل ولا يعرف الآخر والأول، والتصريف والفصل، والحقائق والعلل لا تصح له معرفة من لم يزل.

ويقول الشعراني: ومما من الله به علي حفظي عن الخوض في معاني آيات الصفات وأخبارها من موضوعها على تفصيل، وقل من سلم من مثل ذلك. وهذا من أكبر الذنوب التي يقع فيها جماعة ولا يشعرون

ترى أحدهم يخوض في الكلام على الذات وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النفس وقيام الليل والخوف من الله تعالى ونحو ذلك حتى كأن الإسلام لديهم محض كلام من غير عمل.

وكان يقول: جميع المحجوبين والمؤولين والمتكلمين في علم التوحيد لم يبلغوا عشر معشار معرفة إدراك كنه حرف واحد من حروف الهجاء.

ويقول الشعراني

ومما من الله به علي إيماني بأن أفعال العباد خلق الله تعالى في حال إضافتها إلى العباد معا في آن واحد وهو من أصعب الأمور لأنه إيمان بطريقين متناقضين، فأشهد بعيني بصيرتي في مثل قوله تعالى «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» أن الرمي لله تعالى في حال كونه للعبد لا على التعاقب ويحتاج صاحب هذا المشهد إلى عينين ينظر بهما إلى النسبتين حتى يخرج عن

(١) [illegible] الشعراني بين الإيمان والزندقة ص ٢٩

الجبر. فإن صاحب النفس الواحدة لا يقدر على الخروج من الحيرة في هذه المسألة أبدا.

وقد حبب إليّ أن أوضح لك هذه المسألة بما لا تجده في كتاب من كتب المتكلمين فأقول وبالله التوفيق:

اعلم يا أخي أن العقل مقتصر على فهم مسألة خلق الأفعال من غير إشكال ولا يخرجك عن الإشكال فيها إلا التسليم للنصوص بما قال الحق [illegible] في الوجود الكوني [illegible] حتى تنظر إلى الخلق تجده بنفسه وهو يخلق المخلوق الأول [illegible] من غير تقدمه مادة. فإنك تجد الخالق تعالى فاعلا وحده لا شريك له، ثم تنزل في الفروع إلى أسفل مع مشاهدة سر القدرة الإلهية في كل من أضيف إليه فعل من الخلق فتجده لا يقدر على فعل إلا بإمداد القدرة الإلهية له.

ومن هنا [illegible] الإشكال لعدم تخليص النفس حينئذ في الشهود [illegible] أو [illegible] في [illegible] الأفعال كيف [illegible] إلى الله تعالى [illegible]، قال له [illegible] الإلهية. قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا. فإن نسبة الأفعال إلى الخلق [illegible] ومن أصناف الأمور [illegible] كلها إلى الله تعالى وأصناف القبيحة كلها إلى الأكوان. قال له لسان الوجود الإلهي [illegible] قل كل من عند الله، لا تكذب به بل تأدبا جميلا. كما [illegible] عن ما قبح من الأفعال [illegible] مع علمنا أن الكل من عند الله ولكن [illegible] إلى الحق من ذلك [illegible] تعالى. كما أن [illegible] ما كان من خير وحسن إلى الله تعالى [illegible] حتى يكون الحق تعالى هو المحمود وحده [illegible] تعالى.

فالذي يجب اعتقاده أن الله تعالى خالق أفعال العباد وهم مكتسبون لها، وأن حجة الله تعالى قائمة عليهم، وأنه لا يسأل عما يفعل، ولا يتعب [illegible] الوصول إلى الغاية في ذلك فإننا مكلفون بها مع صعوبة [illegible]

أما الإنسان الذي سجدت له ملائكته ونفخ فيه من روحه ، فقد وهب مع النفحة الإلهية خصائص روحية عليا هي سره الأكبر وهي جبلته المثلى . وتلك الخصائص تدرك بها الإنسان أشياء فوق الحس والمشاهدة وبتلك الخصائص تقع معارفه فوق معارف الحس والمشاهدة ، وتتجلى فيه تذوق النفس المعاني الإلهية ، وتسمو به إلى جلاء أسرار الكون والاطلاع على غرائب ما أبدعت القدرة الإلهية من عوالم منظورة وغير منظورة .

والعلم المادي الذي نجمت أوروبا ومن يعيش في ظل حضارتها في أمريكا وآسيا قد بدأ نفسه يتنكر للعقل الذي ابتكره وابتدعه . فقد ابتدأ يعترف بأن المبتكرات على ما تأسر ، وعلوم ليس في طاقة العقل أن يدركها لأنها فوق طاقته فلا سبيل إليها إلا بوحي من الله أو بإلهام من عالم الروح .

وقف العلامة أينشتاين عند درج صغير في أسفل مكتبه وقال : « إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبي » .

ويقول العبقري « نيوتن » : « لست إلا كالطفل في جزيرة على شاطئ بحر العلم يلتقط ما يقذفه البحر من القواقع على حين أن الجواهر [illegible] في قعر البحر » .

ويقول العالم الفرنسي « بيوفون » : « إننا لا نشهد إلا ما يظهر لنا من العالم في الخارج ، وقد حجب عنا ما هو أعجب وأغرب . فهل ثمة في الدنيا من استطاع أن يفهم سر طيران الذباب ؟ وسر ألاعيب الفراش ؟ نعلم شيئاً عن تركيب الجسم ، ووظائفه ، ولكننا عاجزون عن فهم الحكمة التي أمرت بها ونظمتها . إني أمام مشهد الوجود أعتبر نفسي جاهلاً » .

ويقول « كاميل فلاماريون » : — ما هو الوسيط الذي يتوسط للقوى العقلية في إنتاج نتيجة مادية ؟ كيف يوصل العصب البصري صور الأشياء إلى العقل ؟ كيف يدرك هذا العقل ؟ أين مستقره ؟ ما هي الطبيعة ؟

«ما هي طبيعة العقل نفسه؟ لن يستطيع أكبر رأس أن يجيب عن أحقر مسألة».

تلك أقوال صادقة لعقول في الحضارة الغربية تبرهن أن نهاية العقل البشري هي العجز عن إدراك أسرار الكون. وإنه لأكبر الجهل أن ننكر على الكون من آيات الله وعجائب الخلق ما يعلو أشياء فوق العقل والتصور.

لابد للإنسان أن [illegible] بعالم الجن والروح [illegible] يؤمن بوجود قوى فوق عقله، وبوجود قوى ما يدرك بالحس وما يعرف بالمشاهدة، «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون».

اضطررنا إلى هذه المقدمة لنبرهن على أن كل ما تحدث به المتصوفة عن الجن والملائكة والأرواح يجب أن نخضع عقولنا [illegible] إلى مدحه بالوحي، لأن العقل وحده قاصر عن فهم الروحانيات والغيبيات.

ولنبرهن أيضا على أن الذين هاجموا المتصوفة في حديثهم عن صلاتهم بالجن، وصلاتهم بأرواح الموتى من الصالحين، قد انحرفوا عن الحق، لأن الأدلة الواردة في جانب المتصوفة لا في جانب هؤلاء الوثنيين المتعصبين.

والشعراني في طليعة المتصوفة الذين تحدثوا عن صلاتهم بالجن، وعن صلاتهم بأرواح الموتى من الصالحين، بل إنه أكثر المتصوفة حديثا عن عالم الجن وعالم الروح.

ولهذا كان نصيبه من الحملة العسيرة أكبر من غيره من رجال التصوف الروحانيين.

لقد رموا الشعراني بالكذب والدجل وبالشعوذة والشعبذة [illegible] والتخريف والتخيل الجامح وما إلى ذلك من نعوت وألقاب يجيدها الذين ألهوا العقل وأنكروا ما فوق الحس والمشاهدة.

يقول المستشرق نيكلسون في حديثه عن الشعراني : « وما يسبغ أعزّها خصوصية إنتاجه هي صورة الإعصاب وعدم الإسراف عند تقدير عقليته ، لأننا نراه يؤمن إيمانا عميقا بالقوى الخفية . وما أكثر مراجعه بصدد ما وقع له مع الأرواح والملائكة والجن والكرامات والخوارق ، وإن كتبه حافلة بهذه المزاعم » .

ويقول المستشرق ( ماكدونالد ) في الفصل الذي عقده عن اتصال الأولياء بالجن في الإسلام : « إن هذه الظاهرة إذا كانت مألوفة في العالم الإسلامي ، فإنها لا تبدو أوضح مما هي عليه عند الشعراني الذي كان على اتصال دائم بعالم الجن غير المنظور » .

ويجري الدكتور زكي مبارك مع المستشرقين في الفصل الذي كتبه عن الشعراني في كتابه « التصوف الإسلامي » فيرمي الشعراني بالكذب الفادح ، ويصف عقليته بالعامية ، لأنه تحدث عن الجن وعن اتصاله بهم .

ويعقد الدكتور توفيق الطويل فصلا في كتابه عن الشعراني تحت عنوان « التفسير السيكولوجي لكرامات الشعراني » جاء فيه :

« إن ما يرويه الشعراني عن نفسه من اتصال بالأرواح وتعامل مع الجن قد يغري بالشك ويدفع إلى تكذيبه ، كما كان الحال في موقف الدكتور زكي مبارك منه . ولكن فهم الشعراني في ضوء المنهج العقلي وحده يبدو لنا ضلالا منه ، لأن الرجل كان طوال حياته يعيش في جو ديني مشبع بالتصوف استبد به منذ عهد طفولته ، وأشبع به جوع قلبه ، ومن هنا كان لا بد من النظر إلى رياضات نفسه وتربية فكره في ضوء هذا الجو النفسي .

وقد انتهت به حياته إلى إيمان عميق مفرط طغى على منطق العقل في تفكيره ، وأدى الإسراف فيه هنا إلى ما يسميه علماء النفس بالمدركات الخاطئة والأوهام الحسية فتصور وجود أشباح مجسمة لم يكن لها وجود إلا في وهمه ، وبدت الحقائق في نظره أو احتمل الكثير منها حملانا

بعض الأشياء التي لا تصح في عينه أشباحاً للجن أو الأرواح ، أو كانت هذه من خلق تصوره لأنها تثير نزعات قلبه ووساوس نفسه وتلائم مع جو المعرفة الخفي الذي يستغرقه ومن السهل على من يكون كذلك أن تمثل الجن في خاطره فيصورها في نظره أو تتحول صور الأشياء إشباحاً للجن والعفاريت

وإن حدثنا عن وقائع مع سكان هذا العالم الخفي فإنه مخدوع وليس بخادع ولا كذاب ، وعلى هذا نفسر أحاديثه عن تعامله مع الجن وأرواح الموتى (١)

والآن فلننظر ماذا كان كل هذه الحجة على الشعراني . روى الشعراني في المنن ، أن مؤمني الجن كانوا يحضرون دروسه بمصر ، وأنهم أحياناً كانوا يستحضرون عنه ليلا في منزله فيصلون معه ويسبحون معه على سبحته ، وأن بعض شياطينهم عاداه يوما أثناء مقابلته بمدرسته ثم خرج فتكلف بعض مصالحه ويرعى أولاده فأمسكه حتى ظهر قبض على رجله ، وأحست رجل الجني ترق حتى أصبحت كالشعرة في يده (٢)

وأرسل إليه بعض الجن من المشتغلين بالعلم أسئلة في قرطاس بخطه أصغر من ثمه وقد تشكل في صورة كلب أصفر اللون . وفي مقدمة الأسئلة يقولون عنه : الناس في هذه الأسئلة لم يقوموه لأنها أشكلت علينا وسألنا عنها مشايخنا من الجان فقالوا : إن هذا التحقيق لا يكون إلا عند علماء الإنس ، وقد أجاب عنها الشعراني في كتابه ( كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان )

هذه هي خلاصة حوادث الشعراني مع الجن ، نعرضها على وجهة النظر الإسلامية لنرى هل تتفق أم تختلف

والإسلام صريح في وجود الجن وفي أنهم أمم أمثالنا منهم الصالح ومنهم الشقي ، وأن طائفة من الجن استمعت إلى القرآن الكريم وآمنت به

---

(١) الشعراني للطويل ص ١٥٢ (٢) الجزء الأول من المنن .

بقي بعد ذلك محور الصراع وهو صلاتهم بالإنسان وهل هي جائزة أم مستحيلة. وهل صاحبها كاذب أم صادق.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال

«وكلني رسول الله صلعم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود فعرفت أنه سيعود لقول النبي صلى الله عليه وسلم فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة. قلت يا رسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود قال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله تعالى بها قلت ما هو قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم حتى تختم الآية فإنه لن يزال عليك من الله تعالى حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل أسيرك البارحة. فقلت يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله تعالى بها فخليت سبيله فقال ما هي قلت قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وقال لي لن يزال عليك حافظ من الله تعالى حتى تصبح، ولا يقربك شيطان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة. قلت لا. قال ذاك شيطان»

والحديث صريح صراحة لا لبس فيها ولا إبهام في أن الجني حادث أبا هريرة وحادثه وناقشه وعلمه أيضاً آيات من القرآن تحفظ الإنسان من الجن

والحديث صريح أيضاً صراحة لا لبس فيها ولا غموض بأن أبا هريرة قبض على جني يريد رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال رسول الله لأبي هريرة قائلاً ماذا فعل أسيرك البارحة .

وروى أحمد والترمذي من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة أتدرين ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة أسرته الجن في جاهلية فمكث فيهم دهراً طويلاً ثم ردوه إلى الإنس فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس حديث خرافة ،

وفي السير أن الشيطان صاح في عسكر الصحابة يوم أحد ألا إن محمداً قد مات فترك جماعة من صحبه القتال فضعفت عزيمتهم

بل إن الفقهاء قد وضعوا لصلات الجن بالإنسان قواعد فقهية ووصلت إلى حد أن تناول الفقهاء أحكام الزواج المختلط بين الإنسان والجان

جاء في حاشية ابن عابدين بكتاب النكاح ، أن الحسن البصري أجاز الزوج بجنية دون العكس ،

وجاء في كتاب « أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب » أن الدجال أحد أبويه جني ،

وفي القرآن الكريم بيان وإيضاح لوحي الشياطين للإنس ووحي الإنس للشياطين « شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً »

وفي القرآن أيضاً بيان وإيضاح لأعمال الوسوسة والصرع واللبس التي تترتب على صلة الجن بالإنس

وجاء في القرآن الكريم في قصة سليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور » .

وهي آيات كريمة ليست لا تنفي الصلة بين الإنس والجن فقط بل تعني أن الجن قامت بأعمال مادية للإنسان ، فصنعت له المحاريب والتماثيل والجفان والقدور الراسيات .

( الجن وتحضير الأرواح )

وقد سئل الإمام محمد عبده عن تحضير الأرواح فقال « لقد حضرت في أوروبا مؤتمرا يجمع أكابر هؤلاء الذين حضرت أرواح كثيرين وبعضهم من أعرفه قبل وفاته ورأيت ذلك مطابقا لما علمته عن هؤلاء الناس فسألتهم وكلهم اتجهوا إلى أن يسمعوا منى فقلت لهم : رأيي في هذا أنه عمل من أعمال الجن . وناقشتهم مناقشة جدية في هـــذا الموضوع إلى أن تحديتهم بإحضار روح المصطفى عليه الصلاة والسلام لاسأله عن الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ولأبين درجته وصحة معناه فظهر ذلك الوقت وكثير من المستشرقين الحاضرين فحكمهم بحكم على ذلك وبقيت ثابتا محفوظا من أن يمثل الشيطان بصورته ويؤدي ما يؤديه فعلمت أن ما يقولون عليهم لو طلبوا أن يحضروا جميعا من الذين ماتوا روحا عامة لا يمكن إحضارها ومن ذلك يتبين جليا أن هذا عمل من أعمال الجن » .

وبهذا تتحد الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية مع منطق الواقع والمشاهد على صدق هذا البيان لمن ينشد الحق .

ومن خروج الشعراوي في مقالاته هذه عن نطاق القرآن والأحاديث والواقع المشاهد .

ومن عقلية الشعراوي ساذجة متوهمة كما يقول الدكتور الطويل وكاذبة خادعة كما يقول المستشرقون والدكتور مبارك .

أم أن عقولهم هي الأجدر بهذا الوصف . وإن كانوا أطلقوه في باطل وسلقوه بما هو حق صراح

## الشعراني المفترى عليه

### حيا وميتا

يقول الشعراني [illegible] ما كان عظيم قط في عصر من العصور إلا وكان يلازمه ملازمة الظل خصوم وحسدة، يثيرون الغبار حوله صياحا وجدلا، ويشعلون النار فوق رأسه حقدا [illegible]

[illegible] الصحابة وعلماء ورجال في مختلف الأمم والشعوب [illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible] من [illegible] [illegible] على البقاء والخلود

[illegible] وأعلام الهدى والإيمان

فقد ملأ خصومه [illegible] و[illegible] أو[illegible] في العصور السابقة حتى [illegible] موته [illegible] وحقدا

يقول الشعراني [illegible] مسائل [illegible] ثم يكتبون [illegible] ويستفتون [illegible] ثم يدورون بخطوط العلماء على الناس فيحصل لي من ذلك [illegible] لا يحصى من كثرة [illegible] في عرضي [illegible]

ولا [illegible] لا [illegible] الشعراني [illegible] الآخرة، فالشعراني الذي [illegible] عليه خصومه في حياته [illegible] ملاحقة [illegible] وهو في مقامه عند ربه

وإن كان خصومه في حياته دفعهم إلى [illegible] الحقد والحسد

(١) الجزء الأول من [illegible] ص ١٣٢

في حضور مولد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أسلافهم القدماء ، وإنما يجهل [illegible] الشعب [illegible] نفسه

وهذا [illegible] كبير [illegible] يحتاج في كتاب خاص ولكنه تجزى هنا [illegible] واحد من أشنع ما نسب إلى الشعراني .

[illegible] أنه [illegible] في [illegible] [illegible] في قبة البدوي وأصبح الدكتور زكي مبارك [illegible] وأخذته الصحف [illegible] [illegible] على [illegible] الحادثة الشنعاء .

والدكتور زكي مبارك [illegible] [illegible] الاستشراق [illegible] أحسنوا في أبحاثهم للشعراني في الغيبيات ، أخطأوا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في فهم الكلام الواضح [illegible] [illegible] الكلم عن مواضعه وخرج المعنى عن أهدافه ومقاصده

يقول الشعراني : « ومما وقع لي مع سيدي أحمد البدوي أنه [illegible] [illegible] أيام خروج الناس من مصر إلى مولده [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] صار كل من دخل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حتى [illegible] [illegible] وكانت أم ولدي عبد الرحمن [illegible] [illegible] سبعة أشهر [illegible] [illegible] [illegible] وقال لي [illegible] بها في [illegible] قبتي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إلى طعام وحلوى فلما رجعت إلى مصر [illegible] [illegible] [illegible] في تلك الليلة [1] »

ذلك قول الشعراني [illegible] [illegible] من قول [illegible] [illegible] كما هو واضح [illegible] [illegible] [illegible] السيد البدوي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في طعنا [illegible] منه في منام [illegible] أن يحل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أشهر على زواجه بها في ذكرى قبته ثم يقول الشعراني في [illegible] [illegible] [illegible] فلما رجعت إلى مصر [illegible] [illegible] [illegible] في تلك الليلة [illegible] أي أن الشعراني دخل [illegible] في مصر عقب عودته [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible]

[illegible] [illegible] المتصوفة [illegible] [illegible] في ذلك سنة رسول الله صلوات

---

(١) [illegible] الجزء الأول من [illegible] [illegible] ١١٢

الله عليه فقد جاء فى كتب الصحاح [illegible] أصح قول لأصحابه [illegible] من
[illegible] منكم [illegible] أعمر هذه

والشعرانى يعترف [illegible] على الأمور التى تقع كما
كان ينبه على أحواله [illegible] وأحسن من باب التأديب والتعليم
بالرمز والإشارة .

والشعرانى [illegible] جاءه [illegible] نحو عشرين سنة أشهر وهو بكر
لم [illegible] على [illegible] جاركان مرشده فى الروح
هو [illegible] البدوى

أو هو الشعرانى [illegible] المحول بروحه
[illegible] الذى [illegible] فى إصلاحات [illegible] الحسية و [illegible] النفسية

وعلى أى معنى من هذه المعانى فقد صرح الشعرانى بأنه [illegible] فى مصر
[illegible] فى المنام [illegible] فى مصر لا فى
قبة البدوى

وبذلك تنهار تلك الأقصوصة المسرحية التى نسجوها حول الشعرانى
وما أكثر ما نسجوا حوله من الأقاصيص والأساطير .

## صلاة الولاة ووزراء

يحدث الجبرتي وابن إياس والشعراني وغيرهم [...] وهم مؤرخو مصر في العصر التركي عن ألوان [...] وتقرير أحوال المصريين، وعن نوع الحكم لدى قبضة الأتراك على مصر حديثاً عجباً يفجع القلب ويدهش العقل.

فلقد عانت مصر خلال الحكم التركي لأقسى أنواع العذاب البربري [...] إذ [...] حكامها [...] شرعة [...] حرمتهم [...] واستباحوا كل المقدسات الإنسانية.

كانت مصر خلال هذا الحكم العسكري [...] الظلم والفساد ونشأ عن الظلم والفساد [...] الجهل والفقر [...] في ربوع الأرض [...] والوباء [...] العميم.

وأصبح الأمن [...] أو الدين أو الجاه فيه [...]

[...] وقد كان من عادة [...] العسكرية [...] من شيء أصحاب الحرف في [...] أحدهم [...] ويخلع سلاحه ويعلقه في [...] ويصبح [...]

ثم [...] التاجر لا يكاد يستقر في متجره حتى يسمع الناس [...] وسرعان ما [...] (١)

ويقول صاحب [...] متحدثاً عن الفلاح والقرية المصرية: «وكان الفلاح في قريته معرضاً لسوء [...] والجوع [...] كان القصص والكشاف يعطون عليه [...] الأدوات [...] عن الدفع [...]

---

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٢٤

مما أضعفه وأنهك قوته تعسف الولاة [illegible] والكبت وعصر
الرعية وإفقار [illegible] ظهرت واضحة الفوارق بين الفقر والتخم والضيق
والتوسع [illegible] (١)

ويقول ابن [illegible] الشعب المصري [illegible]
أمواله وكان المباشرون كالملوك [illegible]
على [illegible] (٢)

وكان أخطر [illegible] على الشعب [illegible] السماء كما يقول
[illegible] حكامه [illegible] ومعاشه
[illegible] كانوا من الناس

وفي المتصوفة وجدوا يحتمون [illegible] الجهات [illegible] في وجه كل
[illegible] من أذى.

ورحاب التصوف [illegible] على الظلم والتسلط لأنهم [illegible]
بحياتهم فوق الرغبة والرهبة، ورفعوا [illegible] فوق ما يهب الناس من شهوات
وفوق ما يخيف الناس من جبروت.

أو كما يقول علي مبارك متحدثا عن موقف المتصوفة من جبروت الولاة
الأتراك «ولكن هذا الجبروت كان ينحني أمام زعماء المتصوفة».

ولقد تبلورت قوة التصوف خلال هذا العهد في زعيم التصوف الشعراني
[illegible] في الشعراني مقاومة الشعب المصري وتمرده على الظلم والظالمين

واستطاع الشعراني بإيمانه وشخصيته وجهاده أن يمثل سلطة الشعب وأن
يرد العدوان عنه وأن ينتزع له حقوقها من ظالميه

[illegible] عن الشرق أن الإنجليز لم يستطيعوا أن ينالوا منه أو
[illegible] سلطانهم مع ضعفه وقوتهم [illegible] ذلك إلى سببين: الأول
أن لا أملك شيئا يستطيع الإنجليز أن يأخذوه [illegible] عليه أحرص
والثاني أن لا أطمع في شيء يستطيع الإنجليز أن يمنعوه عني وطمعي فيه أجمع.

---

(١) [illegible] ص ١٢٣ (٢) ابن إياس جزء ٣ ص ١٨١

وكذلك كان موقف الشعراني من جاه الأمراء، لا يبعد عنه إلى ما فيهم من متاع وجاه، لا يحرص على شيء في الحياة.

ويحدثنا الشعراني عن نفسه أنه كان لا يقبل مالاً أو هدية من حاكم، فإذا ألح عليه قبل المال ثم رده وصرح به على مرأى منهم ومشهد من الناس.

ومن قدر مصر أن يصيب أحد الوزراء خلعة الخلعة في تركيا وكانت في ذلك الوقت شرفاً أي شرف ونبلاً أي نبل.

وكان الشعراني في موقفه يتحكم على المتكبرين ويعلي على هؤلاء الحاسدين بحفظ كرامة دينه وكرامة شخصه وكرامة وطنه.

قال له الوزير الأعظم علي باشا عندما عزم على الرحيل إلى تركيا: إننا مقربون إلى الخليفة فهل لك حاجة عنده؟ فأجابه الشعراني في عزة المؤمن: ألك حاجة عند الله، إنا مقربون في حضرته.

وبتلك العزة الإيمانية يرى الشعراني أن الملوك في طاعته لأنه في طاعة الله وفي مصالح عباده، يقول الشعراني:

«شفعت عند السلطان الغوري والسلطان طومان باي وخير بك وغيرهم من سلاطين مصر فقبلوا شفاعتي وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لي»(1)

وبتلك العزة الإيمانية عند الشعراني تحدث الأول عن الشعب المصري، أو كما يقول: «ومما من الله به علي كثرة قبول شفاعتي عند الأمراء ولا أعلم الآن أحداً في مصر أكثر من شفاعة عند الولاة، وربما بعثت نحو ورق في مراسلاتهم في حوائج الناس في أقل من شهر».

وارتفعت مكانة الشعراني بدفاعه عن الشعب ودعائه الملوك والوزراء بأن يرحموا الرعية ويتقوا الله في بلاده ويتقوا في وظائفهم ويوفوا ما يستعبدون به الناس، وقد ضجوا مرة وجهروا بسؤاله الأمراء والخيرات فردها عليهم فأعادوها مرة فازداد عنها وإصراراً.

---

(1) المنن جزء ٢ ص ٢٢٦ .

وعرضوا عليه الوظائف والهبات من الخليفة فأبى أن يأخذ مالاً من حاكم أو حتى أن يأكل من طعامه ، لأن في ذلك مايخدش عقيدته ، ومايخدش رسالته

وطارت شهرة الشعراني بأنه رجل كرامات وثواب وأن من يعصى له أمراً يشك في ماله أو جاهه أو صحته

ويحدث صاحب المناقب عن رهبة جمهرة الترك من الولاة والوزراء بكرامات الشعراني وقوته فيقول : لقد ترتب على هذا الخوف أن الولاة كانوا إذا رأوا الشعراني أسرعوا إليه يقبلون يديه ويتبركون به ويجلسون على الأرض بين يديه ويسارعون إلى تنفيذ أوامره وشفاعاته ،

ويقول لنا صاحب المناقب أيضاً إن الأمراء كانوا يلتمسون منه أن يوصي بهم حين أتيحت في أرجاء الإمبراطورية التركية حتى إنه كتب مرة يوصي بمصر والروم بالأمير جانم الحراوي . كما كان يولي القضاة والمحتسبين وكبار الموظفين ويرجع إليه في كل أمور الدولة صغيرها وكبيرها ،

بل إن علي مبارك ليحدثنا عن خوف الإمبراطورية التركية كلها من الشعراني ومسارعتها إلى إرضائه تفادياً لغضبه .

ويكفي للدلالة على مكانة الشعراني مايرويه لنا أيضاً علي مبارك من أن أحد الولاة تعرض لمدرسة الشعراني بعد وفاته . فسمع السلطان في تركيا بأنباء هذا العدوان مع أن أحداً من مريديه لم يرفع شكواه إليه . فأرسل السلطان بكف العدوان عنهم وهدد من يرتكب إساءة في حرمتهم باعتباره طريد القانون وأنذر بإهدار دمه جزاء عناده .

حتى الموت لم يستطع أن يحجب نفوذ الشعراني لأنه نفوذ قائم على الإيمان والعقيدة وكل مايتصل بالإيمان والعقيدة خالد لايفنى .

# الزعيم

## الروحي والشعبي

في السادات تمثلت خصائص الزعيم الشعبي للكفاح على أكمل ما يكون هذه الخصائص، من قوة عصبية متمردة على الظلم، وقوة بيانية تثير العواطف وتلهب الحس، وفوق هذا وذاك الحماسة المتقدة الساحرة التي تسحر أحاسيس الجماهير وتنفذ إلى أعماقها حتى كأنها مسحورة وهي تقودها وتهيمن عليها.

وفي الشرقاوي تمثلت خصائص الزعيم الديني الملهم على أوضح ما تكون تلك الخصائص من قوة روحانية لا ترهب الظلم ولا يتسرب إليها الإغراء، وقوة أخلاقية لا تلين للشهوات ولا تميل مع الأهواء، وفوق هذا وذاك ذلك السحر الصوفي الأخاذ الذي يضفي على صاحبه هالات القداسة وأضواء الحب والإجلال.

ولم يتح لزعماء التاريخ من جمع بين هاتين الصورتين من ألوان الزعامة فلا غرو إذا رأينا الشعب يخص هذين المعاصرين بالقيادة العامة التي لم يطاولها زعماء ولا نافسهما فيها منافس.

ولقد كان موقف الشرقاوي في وجه القوة التركية ممثلة في الولاة والوزراء والمماليك حقيقة ابتداء الشخصية المصرية المستقلة التي توارت طويلا تحت حكم المماليك والأتراك حتى وجدت في الشرقاوي زعيما وصاحبها، فتركزت حوله آمالها وأمانيها، وأخذت تتكون حوله شيئا فشيئا أولى مجموعات الشخصية المصرية بخصائصها ومميزاتها لتأخذ دورها التاريخي الذي تجلى [illegible] خلال حملة نابليون على مصر وما تلاها من أحداث.

وحول الشرقاوي أيضا تركزت الآمال في نهضة دينية تعيد للدين شبابه الأول ونداوته السابقة وحرارته الإيمانية التي أضعفتها أحداث التاريخ ونال منها جمود العلماء وجهل الجماهير.

وكان من [illegible] [illegible] زعيم الشعبي أنه أعرض عن الوظائف الحكومية لأنه ثائر ولأنه زعيم قائد والوظائف الحكومية داعية تنال من ثورة الزعيم كما تنال من مكانته

وكان من علامات النجح لهذه الزعامة [illegible] أنه [illegible] [illegible] عن الأزهر وبعث أتباعه من الجنود [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عليه في تلك العصور كما خرج أتباعه وتلامذته من أساطين دعاة التصوف [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأول والعلاقة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] التي [illegible] في [illegible] الأساسية لتقليب [illegible] [illegible] الأخلاقية ومن [illegible] الاجتماعية

وجاء الشعراني [illegible] في [illegible] [illegible] العقول الإسلامية من الجمود والأساطير لم [illegible] [illegible] عن [illegible] الشعب في [illegible] [illegible] من ظلم الولاة و[illegible] الأمراء

و[illegible] الشعراني بين [illegible] و[illegible] وأن الصفة التي لا تنفصم بين رسالة الإسلام [illegible] و[illegible] السياسة [illegible].

هاجم الفقهاء وأدعياء التصوف [illegible] [illegible] باسم الجماهير الإسلامية وكافح الولاة و[illegible] [illegible] [illegible] و[illegible] المشكلة الشعبية، لأن هدف الجانب الإسلامي والقسط الشعبي هدف موحد مشترك

يقول الشعراني: هناك [illegible] [illegible] للواحد منهم عدة وظائف، هو واعظ في المسجد، وموظف في الحكومة، وطبيب للعائلة، ولا يقوم بإحدى هذه الوظائف على الوجه الذي [illegible] [illegible] بل هو [illegible] [illegible] الحلال أو [illegible] [illegible] عما عن التصوف في [illegible] [illegible] الحكومية [illegible] لخدمة الناس كافة.

ولا [illegible] هذا [illegible] [illegible] [illegible] الناس كان [illegible] الأول هو رشد الناس [illegible] [illegible] [illegible] الحلال و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أحكام [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بقول الشعراني

وكان الفلاح عند موته فى أحلك الأيام السابقة يترك شيئاً من أشيائه لأولاده ولكنه لأن معظم الفلاحين من أولاده لا يستطيع إلى ذلك سبيلا، فهو يبيع المحاصيل والبقرة والثور لتسديد ما عليه من الضرائب وإذا لم يكن من تسديد ما عليه سجن مع زوجه وأولاده.

ومن أجل تلك الصورة المفزعة لحياة الفـــلاح المصرى جاهد بدمه الشعراوى بنفسه مجاهداً فى سبيل المظلومين كافة. أو كما يقول الشعراوى: لقد عزفت عن المتصوفة فى مصر الخدمة الحكومية لأتفرغ لخدمة الناس كافة.

ولقد ظل الشعراوى إلى آخر نفس له فى الحياة مجاهداً لا تلين له قناة ولا تخفض له راية ولا تزلزله أحداث ولا ترهبه قوى، إنه مجاهد فى سبيل الله فلا يخشى سواه. شعاره دائماً كلمته الخالدة: لو أنصف الناس حسبى من حولى، وهزت شعرة من فقد كرامته.

# الشعرانى

## رجل المثالية الخليقة

وبعد فإن كان الشعرانى كزعيم شعبى ، وكمجاهد صوفى قد شاركه فى الجهاد والزعامة كثيرون من رجال التاريخ ، فإن الشعرانى كان أومن ينفرد بخلق إنسانى رحيم كريم مثالى لا أظن أن غيره يبلغ مبلغه عمقا وإيمانا

كان الشعرانى بحق رجل الأخوة الإنسانية على أدق معانى تلك الأخوة ولهذا كان يشارك بوجدانه بل بكل أحاسيسه المظلومين والمحرومين يشقى لشقائهم ويتألم لآلامهم : يقول الشعرانى ، إنى لا أشعر بشعور المعذبين والمظلومين حتى لكأن كل عذاب أو ظلم وقع بأحد من الناس وقع بى ،

وكان الشعرانى يرى أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا إذا شارك الناس كافة فى أحزانهم وآلامهم لأن الانسانية وحدة متماسكة خيرها مشترك وعذابها مشترك : يقول

« من ضحك أو استمتع بزوجه أو لبس ثوبا مبخرا أو ذهب إلى مواضع المتنزهات أيام نزول البلاء على المسلمين فهو والبهائم سواء »

وكان الشعرانى رحيما بالناس ، ورحيما بنوع خاص بالعصاة والمذنبين لأنهم أشد الناس ضعفا وأحوجهم إلى العطف والنصح والرحمة . يقول متحدثا عن مبادئه

« ثم سترى لعورات الناس وعيوبهم ، ورحمتى بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية فإنهم أشق الناس حينئذ »

ويقول « ثم كثرة رفقى ورحمتى لمن شكا إلى كثرة عشقه للمعاصى لأنه مريض . ثم غيرتى على أذنى أن تسمع زورا ، وعينى أن تنظر محرما ولسانى أن يتكلم باطلا »

وعقد رحمة الشعرانى إلى الحيوان الأعجم لأنه ضعيف مسخر للإنسان « ثم كثرة شفقتى على دابتى ، وكراهتى أن أحمل سوطا » .

بل لقد كان الشعرانى يرى أن العبادة لا تصلح إلا بصلاح القلب ونقاء الأخلاق فكان لا يقوم إلى الصلاة إلا إذا فتش قلبه هل فيه غل أو حقد أو حسد أو نميمة ، أو شهوة صغيرة أو كبيرة بل كان يستحى أن ينام وفى قلبه شىء من هذا ، لأن النوم رحلة الروح إلى الملأ الأعلى

ويستطرد قائلا « ثم أخذى كل كلام وعظت به الناس فى حق نفسى أولا وفى حق الناس ثانيا واستغفارى من ذلك ثالثا ثم عفوى العام عن كل مسىء إلى ، ثم كثرة اهتمامى بحمل هموم عدوى قبل اهتمامى بهموم صديقى » .

ويسمو الشعرانى فى أدب النفس ، ويرتفع فى معارج الأخلاق فيقول « ومما أنعم الله به على عدم خروجى من بيتى إلا إذا علمت من نفسى القدرة بإذن الله على هذه الثلاث خصال : تحمل الأذى عن الناس ، وتحمل الأذى منهم ، وجلب الراحة لهم » .

فإذا كملت هــــذه الثلاث إرتفع الشعرانى درجة بل درجات فيضع « الطليسان » على وجهه ليكف بصره عن فضول الناس

تلك الكلمات المضيئة ، الكلمات الروحية الصافية التى تتلألأ بالنبل والشرف ، هى بعض خلق الشعرانى ، وإنه لخلق يرفعه درجات ودرجات فوق علمه وزعامته . . . ؟

د . عبد الباقى سرور نعيم

٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٧٢

١٩٥٢/١٢/٨



# بعض مصادر الكتاب


المنن الكبرى — الشعراني
الطبقات الكبرى — «
العهود المحمدية — «
تنبيه المغترين — «
اليواقيت والجواهر — «
كشف الغمة — «
أحياء علوم الدين — الغزالي
التفرقة بين الإيمان والزندقة — «
اللمع — الطوسي
القوت — أبو طالب المكي
الرسالة القشيرية — القشيري
الطبقات الكبرى — المناوي
خطط المقريزي — المقريزي
الفتوحات المكية — محي الدين
تلبيس إبليس — ابن الجوزي
مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون
أعلام الموقعين — ابن القيم
الرسائل — ابن تيميه
دائرة المعارف الإسلامية
شرح لامية العجم — الصلاح الصفدي
غاندي — العقاد
محي الدين بن عربي — طه عبد الباقي سرور
التصوف الاسلامي — زكي مبارك
التصوف في مصر — توفيق الطويل
الشعراني — توفيق الطويل
صفوة الصفوة — طبع الهند
الطواسين — ماسنيون
كشف الظنون — حاجي خليفة
وفيات الأعيان — ابن خلكان
صحيح البخاري — البخاري
صحيح مسلم — مسلم
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري — آدم متز
حلية الأولياء — أبو نعيم
مفتاح السعادة — طاش كبري زاده
حجة الله البالغة — الدهلوي
مجموعة تراث الاسلام
الخطط التوفيقية — علي مبارك
بدائع الزهور في وقائع الدهور — ابن إياس

# محتويات الكتاب